
عذاب
قصص قصيرة
الذئاب الجائعة
بقلم
محمود البدوى
http://www.dvd4arab.com

## المحتويات



# ساعة المحطة

بقلم محمود البدوي

كان عبد الغنى فراشا فى محطة .. متوسطة على شريط الصعيد ومنذ أربعين سنة وهو يعمل فى المحطات .. رأى الخط الحديدى يمتد أمامه ويزدوج .. ورأى أسلاك البرق .. ترفع على الأعمدة الخشبية وتهتز مع زئير الريح .. ورأى القاطرات الضخمة التى تتغذى بالفحم وتثير زوبعة من الدخان .. ثم رأى الديزل السريع الذى يمضى كالسهم من غير دخان..

وكان عبد الغنى رغم كبر سنه يقوم بكل الأعمال .. حتى النوباتجية إلى الصباح .. فقد كان بادى الصحة لايشكو من أى علة..

وكان للمحطة استراحة صغيرة .. وضعت فيها كنبة عتيقة ممزقة ومتسخة وثلاثة كراسى من القش علاها التراب..

وكان لايدخل هذه الاستراحة أحد إلا السيدات اللواتى ينتظرن الاكسبريس فى ليالى الشتاء..

ومكتب للتليفون والتلغراف .. تهزه الريح فى الشتاء ويتساقط من سقفه المطر .. ثم مخزن للعفش .. ولكن العفش كان يترك أبدا على الرصيف!..

كانت القذارة فى كل مكان .. داخل المحطة .. وخارجها..

وكان كل شىء يتحرك .. فى كآبة مملة .. الموظفون يتثاءبون فى الساعات الأولى من الصباح .. والخفراء والعمال والحمالون يعملون كأنهم مسخرون..

كان الموظفون يشكون من جمهور الركاب ومن المصلحة ومن الغبار والذباب والحر اللافح فى الصيف .. ومن المطر والبرد والوحل فى الشتاء ومن الكآبة المظلمة التى تحيط بالمكان..

وكانت لافتة المحطة منصوبة على عمود خشبى فى الشمال .. وطمس من اسمها حرفان تماما .. فأصبح يتعذر على أى إنسان أن يقرأها..

وكانت هناك شجرة واحدة .. كان من الممكن لو ازدهرت أن تكون منبع الظل والجمال .. ولكن تركت للمقادير .. ولريح الخماسين .. ولم يكن هناك شىء مضبوط فى المحطة سوى الساعة .. وتحتها كان يجلس عبد الغنى .. ومنذ انشئت المحطة .. وعلق عبد الغنى بيده الساعة على واجهتها وهى تسير بدقة .. كانت لاتتأخر ولا تتقدم ثانية واحدة .. كانت تسير بانتظام عجيب..

وكان الناس يضبطون عليها ساعاتهم .. كأنها " بج بن.. "

وكانت هذه الساعة تتحرك وتحتها يتحرك عبد الغنى ينظر إليها .. ويقرع جرس القطار .. وينظر إليها .. ويفتح مكتب الناظر .. وينظر إليها .. ويتسلم الوردية من شعبان..

وكان كل شىء حسنا فى نظر عبد الغنى .. كان قانعا بالحياة .. راضيا وكانت أمنيته العزيزة الباقية أن يزور الأسياد فى القاهرة..

***

وذات مساء .. استدعاه الناظر وقال له : ـ يا عم عبد الغنى .. مدتك .. قربت..

ولم يفهم الرجل فقد كان بكامل صحته .. كأنه ابن العشرين .. وفتح فمه فى استغراب .. ومد رأسه يستوضح .. فقال الناظر : ـ وصلنا جواب .. من المصلحة .. علشانك .. ـ فيه ايه ..؟ ـ مدة خدمتك تنتهى فى أكتوبر..

وكأنما سمع الرجل الحكم عليه بالاعدام .. فرغم الكآبة وقلة الأجر طوال هذه السنوات .. فإنه كان يعمل ويتحرك .. ويشعر بالأمان .. أما الآن .. فقد القى به بعيدا .. عن معترك الحياة..

وأحس الرجل الذى كان يسير فى المحطة كابن العشرين .. أحس لأول مرة فى حياته بالشيخوخة الحقة تدب فى جسمه .. فسحب رجليه سحبا .. وجلس على دكة هناك .. بعيدا .. ينظر إلى المحطة الصغيرة التى عاش فيها .. أربعين سنة من عمره .. والتى أقامها على عاتقه .. أن كل الموظفين الذين جاءوا إليها وعاشوا فيها .. خدمهم باخلاص .. كان لهم نعم الأب .. الصغار والكبار منهم وكل شىء فى المحطة يتصل به ويمتزج .. الاكشاك .. وأسلاك البرق .. والمكاتب والتليفون .. وآلة التلغراف .. وحتى التراب .. فكيف يقطع هذا منه وينفصل عنه فى لحظة .. فى اكتوبر سيخلع بدلة المصلحة .. وماذا يلبس .. وفى أكتوبر سيتسلم المكافأة وماذا يفعل بها بعد أربعين سنة .. قضاها فى هذا القطاع الضيق من الحياة .. ماذا يفعل ..؟

واستدار بعنقه وهو جالس .. إلى الخلف .. شعر بشىء يحط على كتفيه .. وود لو يراه .. ويلمسه .. وتثاءب .. وأحس بالنعاس وشعر بثقل تام فى جسمه كله ..فاسترخى وراح فى دوامة من الهموم..

ولما انتهى من عمله فى المحطة .. انحدر منها إلى بيته .. وفى الطريق وقف أمام دكان حمدان يشترى علبة سجائر .. وكان يود أن يقول له : ـ استوفيت المدة .. يا حمدان .. الناظر .. قال لى كده..

وعجب أهل بلدته لمنظره وهو يمشى متثاقلا .. حزينا .. حسبوه راجعا من جنازة ولده..

وعندما دخل بيته ورأت زوجته الكآبة على وجهه ، سألته : ـ مالك .. يا عبد الغنى .. قطعوا منك يوم ..؟ ـ قطعوا عيشى .. على طول .. ـ كيف ..؟ وخنقتها العبرات .. ـ استوفيت المدة..

ولم تفهم نبوية شيئا .. ولكن بعد دقيقة فهمت .. وخيم الحزن على البيت وناما من غير عشاء ..

***

وفى اليوم التالى .. استيقظ عبد الغنى لأول مرة متأخرا .. وشعر بكآبة الحياة وثقلها .. وخرج من بيته إلى المحطة .. وكان يسمع صفير القطارات ودخانها .. وحركة السيمافورات .. وهو يشعر بغشاوة على بصره وسمعه..

رأى كل شىء قد التف فى سواد .. ماتت فى نظره كل المباهج والمتع واسود وجه الأرض فى لحظة..

وكان كل من فى المحطة قد عرف أن عبد الغنى سيحال إلى المعاش .. فتألموا لفراقه ، فقد كان يغمرهم جميعا بأبوته الكريمة..

ورآه ذات ليلة أحد الموظفين يشترى شيئا من السوق لموظف التلغراف .. وابتدره عبد الغنى بقوله : ـ سمعت يا فكرى أفندى .. أنا استوفيت المدة .. امبارح ندهلى الناظر .. وقال لى كده .. وكانت عيناه .. تسبحان فى الدمع .. ـ وما كلمتش حد ..؟ ـ مين ..؟ ـ الدكتور عرفان مسافر فى قطر تسعة هو والست بتعته .. اجرى كلمه .. يكلملك حسن بيه .. ـ يعمل إيه ..؟ ـ يشوفلك حل .. يمدوا لك المدة .. يعينوك عتال ..!! أنت بصحتك .. ـ مسافر فى تسعة ..؟ ـ أيوه .. الحق..

وعندما صعد عبد الغنى جسر المحطة .. كان قطر تسعة يدخل كالزوبعة وكان الوصول إلى المحطة عدوا .. لايمكن أن يتم فى أقل من خمس دقائق .. والقطار .. يقف دقيقة واحدة .. ومع هذا فإن العجوز المسكين جرى بكل سرعته .. وكل قوته!!..

وعندما دوى حذاؤه على أرض المحطة كان القطار قد تحرك .. ورمى مارجا من الدخان والنار..

وصاح عبد الغنى .. وهو يجرى وراء آخر عربة : ـ يا عرفان بيه .. شوفلى حكايتى فى مصر .. وحياة السيدة زينب ياعرفان بيه .. كلم حسن بيه وحياة أولادك حيرفتونى..

وأخذ الرجل يزعق .. كالمجنون ويختلط صراخه .. مع الصفير .. وبعد أن غاب القطار فى جوف الليل عاد عبد الغنى يلهث على الرصيف ثم جلس تحت الساعة .. وكان التعب قد نال منه وقلبه يدق بشدة فقد بذل مجهودا عنيفا..

وعندما دخل قطار نصف الليل المحطة خرج الناظر من حجرته يستقبله .. ورأى عبد الغنى من بعيد جالسا تحت الساعة وحيا الناظر الكمسارى والسائق .. ثم قال : ـ دق الجرس .. يا عبد الغنى..

ولكن الجرس لم يدق ، لأن عبد الغنى أصبح لايسمع أى صوت .. وأشار الناظر بيده للسائق .. فتحرك القطار من غير صفير..

كان كل من يراه يتصوره نائما .. وكان وجهه يتجه إلى السيمافور المفتوح .. على خط القاهرة .. وإلى هذا السيمافور كان ينظر من أربعين سنة وعلى وجهه الرضا والقناعة..

وكانت الساعة قد توقفت على العاشرة والدقيقة الخمسين وهى اللحظة التى توقف فيها قلب الرجل .. توقفت تماما .. وهو شىء لم يحدث لها منذ تحركت عقاربها فى هذه المحطة..

# المعجزات السبع

**بقلم محمود البدوي**

حمل البريد الطواف إلى أمين عبد المولى .. وهو قروى من قرية نافع بالصعيد .. ومن أهل الطريقة ..رسالة معطرة من الشيخ رجب شيخ طريقتهم .. يخبره فيها بأنه سيزور القرية يوم الخميس..

وسرى الخبر فى القرية مسرى النار فى الهشيم .. وانتقل منها إلى القرى المجاورة ، فقد كان الشيخ رجب مشهورا فى المنطقة كلها ومعبود الجماهير .. وكان يتفضل عليهم بهذه الزيارة كل ثلاثة أعوام مرة .. مرة واحدة .. ليباركهم ويريهم من معجزاته..

وفى ميعاد وصول القطار ، وقف أكثر من مائة قروى فى محطة أسيوط فى انتظار الشيخ .. ومنهم من لم يدخل محطة حديدية طول عمره .. ولم يركب قطارا فى حياته .. فاضطربوا والتصق بعضهم ببعض على الرصيف .. وأصبحوا كالقطيع قبل أن يدخل السلخانة للذبح ..

يرفعون رؤوسهم ويتصايحون ويتدافعون بالمناكب .. وقليل منهم الذى تسلق الكوبرى ليصل إلى الرصيف الآخر حيث يقف القطار..

وكان القطار يدخن ويصفر .. كأنه يشعرهم بأنه يحمل الشيخ الكبير..

ومع ذلك لم يجد القرويون الشيخ على الرصيف .. ولم يروه وهو ينزل من القطار .. وإنما وجدوه بعد أن أعياهم البحث خارج المحطة واقفا بعباءته الفضفاضة .. كأنما هبط عليهم من السماء..

وسأله أحدهم :

- أنت جيت فى إيه يا سيدنا الشيخ ..؟ وابتسم ابتسامته المعروفة .. ولم يرد على السائل ..

وصاح أحد الاتباع :

- صلى على النبى .. يا جدع .. صلى..

وصلى الجميع .. وكبروا واهتزت للمعجزة الأولى أسلاك البرق .. فقد خطى الشيخ .. جاء من القاهرة إلى أسيوط .. أسرع من الصوت .. فى أجواز الفضاء..

وخرجت الجموع من المحطة .. ولم يركبوا سيارات لأن الشيخ كان يلذ له أن يسير على رأس هذه المظاهرة فى قلب المدينة .. ليراه الناس ووراءه هذا الجمع الغفير..

***

وبعد أن خرجوا من المدينة ركبوا مركبا كبيرا يعبر بهم النيل ، لأن القرية على العدوة الأخرى .. ونشرت المركب شراعها وانطلقت .. ولكن الجو كان حارا .. والريح ساكنا .. وكان التيار يجذب المركب إلى الوراء .. أكثر مما يدفعها القلع إلى الأمام..

وظهر الضجر على وجه الركاب .. ونظروا إلى الشيخ ينتظرون منه المعجزة..

ورفع رأسه ومد بصره .. فرأى السحب تتفرق من بعيد مؤذنه بمقدم الريح .. فأخذ يتمتم ووجهه إلى السماء .. ثم وضع يده اليمنى فى الماء .. وحرك شفتيه..

وهبت الريح وشال القلع .. وشقت المركب التيار .. وصاح أحد الركاب :

- صلوا .. على النبى .. صلوا .. وكانت المعجزة الثانية..

***

وعندما بلغوا الشاطىء ، كانت القرية كلها تستقبل الشيخ .. وكل واحد يحاول أن يقترب منه ويلمس ثوبه لتحل عليه البركة .. وخرج المريض العاجز .. وحتى المشلول .. والمقعد حمل على الأكتاف .. ليرى الشيخ .. وينتظر البركة .. وخرجت العاقر .. والمطلقة .. وذات الضرة .. والتى تلد الأناث .. والمتزوجه كهلا .. خرجن ليلقين الشيخ .. ويتمسحن به .. ويطلبن الأمانى والأحلام .. ومر الشيخ وهو سائر فى الطريق على " مسطاح " رجل .. وكان قد كوم الغلة فى الجرن .. ووضع عليها القلة الفخارية .. وابتدأ فى الكيل..

ونظر الفلاح المسكين إلى الشيخ الوقور .. ذى الذقن الطويلة والعباءة الفضفاضة .. نظرة المسكين إلى نبى .. وصاح :

- باركنا .. يا سيدنا الشيخ .. باركنا .. وسيدى جلال تباركنا..

ومال الشيخ على المسطاح .. ووضع يده فى الغلة .. وعندما كال الفلاح الغلة .. أتى الفدان بثمانية عشر أردبا..

وتطايرت المعجزة الثالثة .. ورقص الفلاحون وهللوا .. ونسى هؤلاء البسطاء المساكين .. أن زراعة هذا الفلاح فى العام السابق أتت بأكثر من ثلاثين " نقيصة " للفدان .. وأنه أحسن من يزرع الأذرة من الفلاحين..

***

ومر الشيخ على وابور الطحين .. وكان الوابور يعاكس ويتعطل كثيرا .. حتى أتعب صاحبه .. وأخيرا جاء له بمهندس المانى .. ففكه كله وربط العدد من جديد..

وفى اللحظة التى مر فيها الشيخ على الماكينة وكانت تحت الجسر وألقى نظرته عليها .. كان " العادم " يخرج من الماسورة .. وصوت الماكينة .. يتك .. وانطلقت المعجزة الرابعة أسرع من سابقاتها..

***

وعندما دخل القرية كانت الطبول تدق والمزامير تزمر .. والرايات مرفوعة .. واشتد التصاق الفلاحين به واحتشادهم حوله .. ورآهم يتنازعون على أول من يتشرف بزيارته .. ويتقاتلون..

وأطرق الشيخ ثم رفع رأسه كأنه يستلهم الوحى .. وقال : ـ سأدخل هذا البيت..

وعندما كان يشرب القهوة فى فناء البيت .. سمع الزغاريد .. فقد وضعت زوجة صاحب الدار مولودا ذكرا .. لأول مرة فى حياتها .. بعد خمس بنات .. وجاء والد المولود .. يقبل أقدام الشيخ وهو يدفعه عنه فى تواضع الانبياء..

وطارت المعجزة الخامسة وحلقت فى الأجواء .. وهبطت على كل قرية فى المديرية جمعاء..

***

وطاف الشيخ بالقرية ومعه الامانى المعسولة .. وأحلام اليقظة .. وكان الشيخ يوزع بركته بالتساوى على الجميع..

وظل الشيخ يطوف بالقرية حتى جاءت صلاة العشاء فصلوا وراءه فى المسجد..

وبعد الصلاة .. مدت موائد الطعام فى الساحة التى اختارها الشيخ للذكر..

وكان كل فلاح يتسابق بما عنده .. ذبحوا العجول والخراف وقدموا الفت والثريد والفطير .. على الطبالى .. ورفعوا المشاعل وجلسوا يأكلون .. ما لذ وطاب..

وكان الخروف الذى على مائدة الشيخ تتصاعد منه رائحة زكية .. ولا ينقص أبدا .. شهد بذلك الجميع..

والقلة التى رفعها إلى شفتيه شرب منها مع الحاضرين .. وظلت ممتلئة .. كما هى..

وهكذا انطلقت المعجزة السادسة تسابق الريح..

***

وبعد العشاء .. والشاى الأسود .. بدت حلقة الذكر فى الساحة ، ووقف الشيخ فى وسط الصف وحوله أتباعه ومريدوه .. وفى صفوف وراءهم وقف الفلاحون..

وابتدأ الذكر بهمهمة لامعنى لها .. ثم بتمتمة .. ولم يكن اسم الله يذكر على لسان..

ثم ابتدأ الطواف .. والزبد على الشفاة .. والصراخ .. ولوثة المشعوذين .. وكان الشيخ يرتفع بجذعه وينحنى حتى تلامس رأسه الأرض..

وعندما كان يرفع رأسه كان يرى القرويات على سطوح المنازل متحجبات وسافرات يشاهدن الذكر ويتهامسن..

وكان الشيخ عندما ينفرد نظره بمليحة منهن كان يطيل النظر إليها ثم يغلق عينيه كأنه يسبح..

وشاهد فى المنزل المواجه له صبية فى جمال القمر .. وعندما انتهى الذكر بعد منتصف الليل .. وأخذ الفلاحون يتنازعون على البيت الذى ستحل فيه بركة النوم..

قال لهم الشيخ : ـ الجار أحق بالتشريف .. واختار بيت الصبية لينام فيه..

وكان البيت لقروى متوسط الحال .. ورث من أبيه فدانين وتزوج من هذه الصبية الحلوة .. لينجب ويأتى بالوريث .. ولكن بعد زواج أربع سنوات .. لم يأت الوريث .. وكان المسكين قلقا .. ومتبرما .. وعرض نفسه على جميع الأطباء فى المدينة .. وحمل جميع أنواع الأحجبة .. دون نتيجة..

وطار قلب الفلاح من الفرح عندما دخل الشيخ بيته .. وتجمع الناس حول الدار .. ولكن الاتباع صرفوا الناس لينام الشيخ .. فى هدوء..

وحرصا على راحة الشيخ ترك الفلاح القاعة العلوية للشيخ .. ونزل لينام وحده فى الفناء..

وظلت الزوجة الصبية تخدم الشيخ وتقدم له الماء فى الابريق ليتوضأ ويصلى الفجر .. وهى جالسة أمامه .. وكان هو يمسح على جبينها وشعرها ويتمتم ثم أخذ يباركها على طريقته..

***

وارتفعت شمس الضحى .. وحلت صلاة الجمعة فى مسجد القرية .. ولم يحضر الشيخ الصلاة ..

وقال الفلاحون :
- انه يصلى فى الكعبة..

وجاءت المعجزة السابعة .. متأخرة .. قليلا فقد حملت توحيدة زوجة الفلاح العاقر الذى باركه الشيخ ونام فى بيته .. وتأكد الحمل بعد ثلاثة شهور من سفر الشيخ .. وطبلت القرية كلها ورقصت لهذه المعجزة لأنها كانت أروع المعجزات..

# الشيخ عمران

بقلم محمود البدوي

كانت عندنا فرس من كرام الخيل، خرج بها الخادم إلى المرعى وعاد بدونها، ولم نكن ندرى أسرقت منه وهو عائد بالخيل فى ظلمة الليل، أم ذهبت على وجهها فى الحقول؟..!

وبحثنا عنها فى القرى والعزب المجاورة فلم نعثر لها على أثر..

وأخيرًا رأى والدى أن يرسلنى إلى الشيخ "عمران" فى النجع.. ليبحث عن الفرس قبل أن تتسرب إلى السوق..

وراح الخدم يخرجون الخيل.. وانطلقنا إلى النجع وقد انحسر الظل على دروب القرية، وحميت شمس الضحى واشتد وهجها على الجسر. وكان معى خفيران من خفراء المزرعة، مسلحان بأحدث طراز من البنادق، فقد كان علينا أن نسير ساعتين على ظهور الجياد فى طريق مقفر يكثر فيه قطاع الطرق فى تلك المنطقة من الصعيد..

وأخذ "مسعود" ـ أحد الخفيرين ـ يحدثنى عن الشيخ عمران حتى أفزعنى.. فقد قص علىّ أنه كان ذات ليلة فى مزرعة بطيخ له، فمر تحته قارب صيادين، ورأى الصيادون بطيخ المزرعة الناضج، فسولت لهم أنفسهم أن يقتربوا منه، وأحس بهم الشيخ عمران.. وجاء بهم بعد أن أوثقهم بالحبال، ثم صنع من لحومهم طعمًا للأسماك..!

وكان فى ثورة سنة ١٩١٩ على رأس الرجال الذين عبروا النيل إلى قرية "الوليدية" فى أسيوط.. وكمن هناك فى النخيل قرب الخزان حيث يعسكر الإنجليز، وأخذ يحصدهم حصدًا..

ولما أراد العرب أن يعبروا الخزان، أرسلوا إليه فتقدم ومعه رجلان إلى موقع المدفع الرشاش المصوب على الخزان، وظل يطلق النار حتى سكت المدفع.. وأدير الكوبرى.. ومر العرب يقرعون الطبول..

قص على مسعود هذا وغيره. وكنت أعرف الكثير عن الشيخ عمران، أعرف أنه أشد الرجال بأسًا وأعظمهم جبروتًا، وما من حادثة تحدث فى المنطقة بأسرها إلا يعرف سرها.. وما من رصاصة تطلق فى الليل إلا يعرف مصدرها.. إنه رجل رهيب، إذا دخل قرية فى وضح النهار أرعبها وأفزع أهلها، وإذا تنكر لقوم بطش بهم ..مسحهم من الوجود مسحًا.. بدأ حياته كقاطع طريق صغير، ثم تطور وعظم أمره، وغدا أشد فاتك فى المنطقة وأعظم الرجال بطشًا، كنا نسمع عنه الكثير من القصص المروعة ونحن صغار، وشببنا عن الطوق وصورة هذا الرجل تملأ قلوبنا رعبًا..

ولهذا ظللت طول الطريق أفكر فيه وأتمثله بعين الخيال، رجلا فى طول المارد وبطشه، له جسم ثور وقوة عنترة.. دائما مسلح، دائما مقاتل..

واقتربنا من النجع، وكانت الجياد تتصبب عرقًا، والتعب قد بلغ منا منتهاه. ولاح لنا النخيل يطوق البيوت المبنية من الطوب الأسود، ثم عيدان الذرة والحطب على السطوح، والجريد والدريس والنواعير الخربة فى خارج البلدة ..والكلاب تنبح فى كل مكان، إنها الصورة المكررة للقرية المصرية منذ الأزل..

ولم نجد الشيخ عمران فى النجع، بل كان فى جزيرة وسط النيل، فتركنا الخيل فى النجع، وركبنا زورقا إلى الجزيرة..

* * *

وجدناه فى عريشة صغيرة على ربوة عالية فى طرف الجزيرة .ولقد ذهلت عندما رأيته، كان رجلا متوسط الطول أقرب إلى النحافة، مدور الوجه جامد الملامح، ينسدل شاربه على فمه فى غير نظام، جاوز الخمسين هادئًا، ساكن الطائر. هل هذا هو الشيخ عمران الذى أرعب المنطقة قرابة ثلاثين عاما وما زال يرعبها؟..!

رأيناه من بعيد جالسا القرفصاء وكان ينكت الأرض بعصا قصيرة، ولم يكن يلقى باله إلينا، ثم رآنا نصعد فى الطريق إليه فأرسل بصره ثم رده وعاد ينكت الأرض!! وكان يجلس فى ظل العريشة وحيدًا... لم تكن حوله كلاب، وكيف تعيش الكلاب فى عرين الأسد..؟!

وعرف مسعود، ونظر إلىّ قليلا ثم قال:

ـ إبراهيم ابن الشيخ عبد الرحيم؟..

ـ أجل..

فرحب، وفرش لى "زكيبة" وجلست بجواره فى الظل، وعيناى لا تتحولان عنه. لا، إننى مخطئ. إن نظرتى الأولى كانت عاجلة. إن هذا الرجل ليس كالرجال، إنه من طراز آخر، إن له شخصية جبارة..

وشربنا القهوة، وحدثته عن الفرس، فضحك وقال:

ـ لم يبق إلا هذا!..

ثم أردف:

ـ لقد شرفتنا، ونحن فى موسم الإيجار، ولقد بدأنا فى جمعه فعلا، وستحضر بنفسك تحصيل الباقى، وتعود إلى والدك محملا بالمال..

ابتسمت وشكرته، إن جمع الإيجار معناه أننى سأبقى مع هذا الرجل القاتل المطارد ثلاثة أيام أو أربعة فى هذه الجزيرة الموحشة..

وتغدينا وأكلنا البطيخ، وصرف الشيخ عمران الخفيرين وهو يقول لهما:

ـ قولا للشيخ عبد الرحيم إن إبراهيم فى ضيافتى وسأرافقه حين عودته إلى القرية"...

ومشى معى يطوف بالحقول..

* * *

مررنا على مزارع البطيخ على شاطئ الجزيرة، ورأيت الفلاحين يقفون خاشعين صاغرين أمام الشيخ عمران، كانوا فى أخصاص من "البوص" قائمة فى صف واحد فى نهاية الحقول. لكل مزرعة خصها وكلابها ورجالها، فإذا بصروا بنا نهضوا، وزجروا الكلاب، ودار الفلاح فى حقله يضرب البطيخ بيده لينتقى لنا أحلاه وأنضجه، فإذا رفضنا قال فى حماسة:

ـ إن هذا لا يصح.. إن هذا لا يصح..

ولقد وجدت البطيخ مكوما في أطراف الحقول ولا أحد يحرسه.. والمواشى ترعى الكلأ فى قلب الجزيرة ولا أحد وراءها.. ولم أر فلاحا واحدًا يحمل عصا، ولا خنجرًا ولا بندقية.. إنهم جميعًا فى حمى الشيخ عمران، وقد عجبت للهدوء الذى يخيم على الجزيرة.. إنها فى قبضة مارد جبار.. وحدثته عن هذا، فنظر إلى مليًا، ثم قال مبتسمًا:

ـ إن كل شيء هنا حسن.. والشر يجيء لنا دائمًا من المدينة، عندما يذهب الفلاح إلى المدينة ليبيع فى السوق، يعرف الشاى الأسود" والتمباك" و"الحسن كيف".. ويرى الذين يلبسون الأحذية ويقرعون بها الأرصفة، والذين يركبون السيارات الفخمة ويخطفون بها خطفًا فى

الطريق.. ويرى الذين يسكنون القصور وحولها البساتين، ويرى الأنوار تتلألأ فى الليل، والملاهى البراقة فى كل مكان، يرى كل هذا، فإذا عاد إلى قريته جر رجليه جرًا، كان كمن ضرب على أنفه، إنه يسأل نفسه وسط الظلام والقاذورات والحشرات، وروث البهائم.. هل أنا كائن حى..؟ هل أنا مخلوق بشرى حقًا؟.. هل أنا من طينة هؤلاء؟.. عاد والغل والحسد والحقد وصفات الشر كلها تأكل قلبه أكلا. وأنت تراهم هنا وتحسبهم ملائكة، لفرط ما تحسه من سكون يخيم على الجزيرة.. ولكنك لو تركت الحبل على غاربه يا بنى لأكل بعضهم بعضًا.. إنهم يحبون السرقة والسطو على زراعة الجار.. ويغشون ويخادعون، ولو لم أكن معك الآن لألقوا بك فى النيل، لأنك صاحب الأرض، ولأنك كما يتصورون تأخذ من قوت عيالهم..

فكرت فيما قاله الشيخ وقلت لنفسى: ـ إنهم يفعلون ذلك كله تحت تأثير نير القرون.. ظلم أجيال وأجيال. إن الفلاح المصرى يسرق، ويخادع، ويستريب نتيجة لحياة البؤس والاستبداد التى عاشها منذ آلاف السنين، ولم يتنفس الصعداء إلا فى عهد العرب.. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا..؟

ثم ماتت هذه الكلمات وعاد الرق والاستبداد كما كانا..

وعدنا إلى العريشة نشرب القهوة، ونودع الشمس الغاربة..

* * *

ابتدأ النساء فى الجزيرة يخرجن من الأخصاص، وعلى رؤوسهن الجرار ويتجهن إلى النيل. رأيت سواعدهن البضة وهى تتحرك من بعيد، وبعض وجوههن النضرة.. كن يمشين فى خفر أسرابا، وكن جميلات فاتنات..

ونزل الشيخ عمران إلى النيل وتوضأ، ولما غربت الشمس صلى، وعاد فجلس بجوارى صامتًا، وكان الظلام يتساقط رويدًا رويدًا..

وتعشينا، وفرشوا لى لأنام، كان الشيخ عمران يود أن أنام داخل "الخص" ولكننى رأيت أن أنام فى العراء لأرى هذا الرجل الرهيب فى الليل..

إنه لا يدخن، وهو رجل قليل الكلام، كثير الصمت، وصوته ليس جهوريا، ولكنه قوى آمر. ولعل ذلك راجع إلى أنه تعود صيغة الأمر دائمًا فى حديثه مع الناس. وهو فى الليل لا يغير ثوبه كما يفعل كثير من القتلة، وإنما يظل كما هو لا يتغير فيه شىء.. تتركز حواسه كلها فى باصرتيه ويغدو خفيف الحركة، سريع اللفتة، يقظ السمع، يرنو ببصره إلى بعيد، لقد أدركت قوة بصره فى الليل وهو يرى من وراء الأبعاد، ويخترق به حجب الظلام، ويسمع أدنى حس. كانت تمر تحتنا قوارب الصيادين، وكان يسمع حركة المجاديف وهى مقبلة من بعيد، فإذا اقتربت من رأس الحجر فى طرف الجزيرة صاح بصوته المرعب:

ـ من هناك..؟

ـ نحن يا عم الشيخ عمران..

ـ ابتعد عن الحجر وخليك إلى الشرق..

ـ حاضر..

إنه لا يريد أن يقترب أحد من عرينه.. إنه قاتل، والقاتل فى الصعيد دائما مطارد، ولو عاش ألف عام. وعندما يخور الشيخ عمران ويستضعف سيتمزق إربا، ولقد خلف وراءه فتيانا أشداء، وله

أسرة مرهوبة الجانب، وقد يعيش فى هذه الشيخوخة فى ظلها وعلى حسها، وإن كان لا يزال شامخ الأنف، لم يسقط فى حياته سقطة واحدة..

شمل الظلام كل شيء ولفنا فى ردائه، ونام من معنا من الفلاحين، وبقيت ساهرًا مع الشيخ عمران. لقد شعرت بطراوة الهواء ولينه، وعمق السكون، وكنت أود لو أتمرغ على الرمل وأنزل لأسبح فى النيل، كان كل شيء ساكنا، والطبيعة سافرة طليقة من كل قيد، تشعر الإنسان بالحرية الصحيحة، كنت أشعر أننى قد تحررت من قيود المدنية الزائفة وأخذت أنظر إلى النجوم البراقة فى السماء، وإلى الغياهب.. غياهب الليل.. وإلى النيل الجارى تحتنا، وإلى مزارع النيل من حولنا ..وأتأمل وأفكر..

إن الشيخ عمران يجلس على هذه الربوة وحيدا فى الليل، وأولاده فى كل مكان، "معاذ" فى الماكينة، و"سلمان" فى النجع، و"عبد الكريم" فى الجبل، ولكن أنفاسهم جميعا معه..

وفى الهزيع الثانى من الليل، رأيته يدخل العريشة ويعود وفى يده شىء، إنها بندقيته.. وهى من طراز هندى ككل البنادق التى تراها فى الريف ..ولكنها فى يده شىء آخر.. وضعها بجانبه واستلقى وعينه إلى الغرب.. وضعت رأسى على الفراش وحاولت أن أنام، فالشيخ عمران ساهر علينا جميعا، ولكننى لم أنم، وظللت أراقبه.. تحرك، ومد البندقية.. وأطلق.. أطلق فى الهواء.. وسمعت صوت الطلقة وطاف بذهنى شىء.. لقد تذكرت، سمعت صوت هذه الطلقة فى الليل من قبل، كانت طلقة واحدة تنطلق فى ساعة معينة بعد نصف الليل.. وكنا نسمعها ونحن فى أجران العزبة، ونصيح فى صوت واحد:

ـ الشيخ عمران..!

إنه ظل على عادته يرسل هذه الطلقة كل ليلة.. طلقة واحدة ليس إلا، ثم يضع البندقية تحته وينام..

اعتمدت بمرفقى على تل من الرمل، وأقبلت أتحدث معه ..أخذ يحدثنى عن مغامراته فى الليالى السود، والمعارك الدامية التى تحدث فى القرى على لا شىء.. وحوادث السرقة فى وضح النهار، والزمن الذى تطور، وطوى معه كثيرا من القتلة فى الريف.. كان حديثه طليا ساحرا يستغرق الحواس كلها..

طلبت منه أن يحدثنى عن أول حادثة قتل فى حياته، فتجهم وأطرق طويلا.. لقد نبشت دخيلة نفسه.. إنه يتذكر.

رفع رأسه وقال فى صوت متغير:

ـ سأحدثك يا بنى..

وأطرق مرة أخرى، ثم رفع رأسه وقال:

"كان ذلك منذ سنين طوال.. كنت فى صباى.. وكان والدى يحب أن يزوجنا صغارًا، فزوجنى من ابنة عم لى، على عادة العرب فى قصر زواجهم على الأقارب.. وكانت صغيرة.. وكنا قد شببنا معا، ورعينا الغنم معا، فكان حبى لها قويا ..وكان كل شىء فى الحياة يمضى رتيبا ثقيلا.. لم تكن الحال كما تراها الآن آلات للرى، وزراعة، وعمران، بل كان جدبا شديدًا وفقرًا شاملا، كنا نعيش من بيع الملح.. نجىء به من الجبال ونبيعه فى القرى النائية. وكنت أطلب الرزق أينما وجد. فلم يكن من السهل على رجل فى مثل شبابى ورجولتى أن يتبطل..

وكان هذا الفقر يدفع العرب إلى السلب والنهب، وقطع الطريق على الناس.. فكانت الحوادث تترى، والرصاص يدمدم فى كل ساعة..

وحدث أن أغار جماعة من العرب على مزرعة واستاقوا مواشيها، وقتلوا خفيرا من خفرائها.. وجاء الجند، وعلى رأسهم ضابط طوقوا النجع ..وبدأوا يفتشون فى بيوتنا لأنها فى اعتقادهم وكر الجريمة..! وكنت غائبا، ودخلوا بيتى وفتشوه، وسأل الضابط « جميلة » زوجتى:

ـ أين زوجك..؟

ـ مسافر يا سيدى منذ شهور يجرى وراء معاشه..

ـ ومن الذى وضع هذا فى بطنك إذن..؟

ووضع أصبعه على بطنها، وكانت حبلى «بمعاذ..«

فعل هذا وخرج.. وصعقت المسكينة.. وطار الخبر فى كل مكان..

وعدت من سفرى وسمعت بما حدث وأنا فى الطريق.. ودخلت البيت ولكننى لم أحادث جميلة ولم أر وجهها.. وتناولت بندقيتى وخرجت.. وذهبت عند صديق لى فى الجبل، ومكثت عنده أياما.. وحاولت خلال ذلك أن أتناسى ما حدث، ولكننى كلما تمثلت الأصابع وهى موضوعة على بطن زوجتى أستطير خبلا، وأكاد أمزق نفسى..

وتركت البندقية عند صاحبى، وخرجت متنكرا أطوف حول» النقطة».. ورأيت خير ما أفعله أن آخذه، وهو خارج للدورية، بعيدًا عن النجع والقرى المجاورة لنا..

وخرجت فى ليله سوداء لا أنساها ما عشت، ففى هذه الليلة تقرر مصيرى يابنى، ورسم القدر خط الحياة لى.. وكانت ليلة من ليالى الشتاء، ضريرة النجم شديدة البرد، وكانت معى بندقيتى وخمسون طلقة، وكنت على استعداد لأن أقاتل جيشا بأسره، وأفتك بكل من يعترض سبيلى حتى ولو كان أبى..

كانت ثورتى جامحة، وغضبى لا يصور..

وكمنت فى زراعة قصب، وانتظرته وهو مار على ظهر جواده فى الطريق.. وجاء.. وصوبت وسقط..

وأطلق العساكر النار، ولكن طوانى الليل..

وبت هذه الليلة فى بيتى، واستطعت أن أقابل» جميلة..«

وصمت الشيخ عمران قليلا ثم أضاف: ـ بعد هذه الليلة يا بنى تغير فى كل شىء، وجدت شيئا جديدا يعتمل فى داخل نفسى، واستطعمت رائحة البارود، وأصبحت حياتى كما تعرف وترى.. وأنت لا تستطيع أن تغير الدم.. الدم الجارى فى عروقك، أو تمحو أثر البيئة، وأنت تتعلم وتتهذب وترقى، ولكن دمك سيظل عربيا لأنك ولدت فى النجع ونشأت فى النجع، وفى هذا الجو الطليق عشت، وتنفست أول نسيم للحياة..

وصمت الشيخ عمران وتركنى لأنام..

مضى وحده فى الظلام، فقد سمع نباح كلاب شديد..

* * *

بعد قليل عاد إلى مكانه، وكانت الكلاب قد كفت عن النباح، وعاد السكون.. وكانت النجوم تهوى فوقنا متعاقبة، والظلمة شديدة، والماء يجرى تحتنا ويهدر.. ومن ساعة إلى أخرى كنا نسمع صوت رصاصة تنطلق فى الجو.. لابد من هذا فى الريف، كان صوت الرصاص مألوفا عند الفلاحين..

بل لعلهم يأتنسون به أكثر من صوت الكلب، وصوت الإنسان، ويشعرون بالوحشة عندما يشتد السكون..

غلبتى النعاس، وصحوت والشمس تغمر وجهى، ولم أجد الشيخ عمران.. وسألت عنه فقيل لى:

ـ انه ذهب إلى النجع..

ورأيته بعد ساعة مقبلا من بعيد يمشى تحت وهج الشمس ..ووراءه ابنه معاذ.. معاذ الذى يحرس «الماكينة» بذراع واحدة.. فقد ذهبت ذراعه الأخرى فى حادث.. كان وهو غلام فى «الماكينة» ومعه أخوه الأكبر.. وذهب أخوه إلى القرية ليجىء بشىء، وتركه وحده.. فهجم عليه اللصوص فى الغروب.. وظل يقاتل.. واخترق الرصاص ذراعه، ومع هذا لم يستسلم، ولم يستطع أحد أن يقترب منه، أو يمس حديدة فى» الماكينة».. هذا هو معاذ، إنه من دم عمران ومن صلبه، كان يجىء إلى قريتنا كثيرا يحمل الإيجار، ويحاسب على الأرض، وكنا نعرفه جميعا.. وكان إذا تأخر واحد من إخوتى فى الليل، أو بات فى الأجران، سأل والدى عن الذى معه.. فإذا عرف أنه معاذ اطمأن وكف عن السؤال.. كنا نسميه «أبو ذراع» وكان واسع الحلم طيب المعشر.. فإذا غضب انقلب أسدًا..

حيانى معاذ وجلس.. وبعد قليل تحركت ذراعه.. ودفع يده فى جيبه وأخرج صرة ناولها لى وهو يقول وعلى شفتيه ابتسامة:

ـ هذا إيجار زراعات الماكينة جميعا..

ـ جمعته كله يا معاذ..

ـ أجل..

ـ ولم يبق أحد..؟

ـ ولم يبق أحد..

ونظرت إليه، وكان يبتسم وعيناه تلمعان.. إنه صورة من والده.. نفس النظرة القوية.. ونفس الملامح الصارمة.. ونفس الشخصية الجبارة التى تفرض نفسها على من حولها..

جمع الشيخ عمران باقى المستأجرين، وشغلت طول النهار بتحصيل الإيجار، وفى المساء وضعنا الأوراق المالية والفضة فى كيس كبير أعطيته للشيخ عمران فوضعه فى العريشة أمام الجميع!..

وهبط الليل، وكنت قد تعبت طول النهار، فنمت فى أول الليل وصحوت على صوت طلقة.. لم تكن الطلقة التى تعودت سماعها من الشيخ عمران.. طلقة تذهب فى الهواء تدمدم.. لا.. إنها طلقة مكتومة.. رصاصة أصابت جسما واستقرت فيه ..فتحت عينى وتلفت حوالى.. لا أحد بجوارى غير عمران.. كان على قيد خطوات منى، نائما على بطنه ويده تعمل فى البندقية.. لقد أخرج الظرف وألقى به بعيدًا، ولما أحس بى، وعرف أنى صحوت، قال وهو يبتسم:

ـ لا شىء.. إنه ثعبان..!

ـ أقتلته..؟

وصمت ولم يقل شيئا، وظل وجهه مبتسما، ويداه تعملان فى البندقية.. ثعبان..؟ تلفت مرة أخرى.. أرسلت بصرى إلى رأس الحجر كان هناك شيء أسود وفتحت عينى جيدًا، وتفرست فى الظلام، وتملكنى الرعب.. إنه رجل نصفه فى الماء، ونصفه على الأرض.. وقد منعته الحجارة من أن ينجرف مع التيار..

ولقد جاء بعد أن عبر النيل فى زورق أو سواه ليقتلنى أو ليقتل الشيخ عمران، ولكنه انتهى فى لحظة واحدة وما أحس به إنسان..

ونظرت إلى الشيخ عمران.. نظرت إلى هذا الرجل، وحاولت أن أقرأ على وجهه شيئا ينم عن فعلته، شيئًا يدل على أنه قتل نفسا بشرية..

ولكنه على حاله.. لم يتغير فيه شىء.. إنه هادىء ساكن، وما نبض فى جبهته عرق، ولا اختلجت شفة، ولا اهتزت يد.. أى قلب..! وأى أعصاب..! ومن أى طينة هذا الرجل.. إننى إذا ضربت خادما بعصا فى ثورة غضب، أظل طول الليل أتململ فى فراشى، والندم يأكل قلبى، ولا أعود لنفسى إلا إذا طلبت من الخادم أن يصفح عنى ..أما هذا الرجل فهو يقتل إنسانًا.. ولا تتحرك فيه جارحة، ولا يظهر على وجهه شىء.. أى قلب..! وأى أعصاب!..

بعد قليل تحرك، ومشى إلى رأس الحجر.. مشى متمهلا، ورأيته يدفع الرجل العالق بالحجر برجله.. وذهب الرجل مع التيار..

وعاد عمران إلى مكانه كما كان أول الليل.. كأن لم يحدث شىء..

* * *

فى أصيل اليوم التالى، غادرنا الجزيرة إلى النجع، وبعد أن استرحنا، وشربنا القهوة فى مضيفة الشيخ عمران، أمر بإعداد الركائب، وكان هو وابنه «معاذ» سيرافقاننى إلى قريتى..

ولما خرجت إلى الساحة، وجدت فيها ما أدهشنى.. وجدت فرسنا التى سرقت مسرجة ومعدة لركوبى..! ونظرت إلى ذلك الرجل الجبار نظرة امتنان وشكر.. سأعود الآن إلى قريتى مرفوع الرأس وكل ذلك بفضله.. ولقد علمت أن معاذًا جاء بالفرس منذ يومين وكتموا عنى الخبر لأفاجأ هكذا..

وركبنا نحن الثلاثة وخرجنا من النجع. وكان الشيخ عمران يركب حمارًا وكذلك ابنه، ولهذا سرنا متمهلين نقطع الطريق بالحديث والتندر مع معاذ ..وكان دائم المرح حلو الدعابة، لا يكف عن الضحك ولا يعير باله لشىء فى الوجود وهو الرجل المقطوع الذراع.. وكانت وجوهنا إلى الشمس.. فلما غربت تنفسنا الصعداء، وأسرعنا فى السير، وكان الطريق على عادته مقفرا وكل شىء فى سكون.. وأخذ الظلام يشتد ويلف كل شىء فى ردائه الأسود..

وكنا كلما أوغلنا فى السير زاد السكون، واشتدت الوحشة فى الطريق.. وقطع هذا السكون دوى رصاص شديد انهمر فى غير انقطاع مرة واحدة، واستمر عدة دقائق.. فتمهلنا فى السير، وأمسكنا بالبنادق..

وقلت للشيخ عمران وأنا أتسمع:

ـ عرس فى القرية..

فقال وهو ينظر إلى ومض البارود:

ـ إنه ليس بالرصاص الذى يطلق فى الأفراح، إنه شىء آخر..

انقطع صوت الرصاص، وخيم السكون من جديد.. وظللنا نرقب.. ورأينا من بعيد خطا أسود يزحف إلى الغرب.. ومددنا أبصارنا وتبين الخط الأسود.. وضح ما فيه.. إنها ماشية تساق سراعًا فى طريق غير مألوف.. وخلفها وأمامها رجال مسلحون.. لقد سرقوا هذه المواشى من القرية، واشتبكوا مع الحراس فى المعركة التى سمعنا دويها. ثم تغلبوا عليهم وهاهم قد أفلتوا بالماشية يسوقونها سراعا..

وترجل الشيخ عمران، وأشار علينا بالنزول.. ترجلنا وبحثنا عن مكان نربط فيه الركائب، ووجدنا ساقية خربة.. فربطناها فى ترسها وأخذنا نرقب.. تحول الرجال بالماشية إلى طريق آخر، ومضوا فى الظلام وابتدأ عمران يعمل بسرعة.. تناول بندقيته ومضى فى أثرهم.. ولما هممنا بالذهاب معه، رفض.. وحلف على معاذ بالطلاق أن يبقى معى فى الساقية ولا يتركنى حتى لو قتل.. وبعد أن تنتهى المعركة بخير أو بشر نستأنف السير إلى القرية..

وخرج الرجل وحده، رأيناه يمضى سريعا كما يمضى الليث فى الظلام..

وبعد قليل سمعنا الرصاص يدمدم.. ابتدأ عمران يقاتل وحده.. أخذت بندقيته تزأر.. إن له طريقة فريدة فى القتال، كما أنه رجل فذ فى كل شيء..

واستمرت المعركة حامية مدة. ثم انقطع صوت النار.. وخيم السكون ولاحت لنا أشباح تتحرك. تتحرك فى اتجاهنا. إنها المواشى. وها هو عمران وراءها يسوقها.. لقد خلصها من اللصوص وحده..

ودخلنا بالمواشى المسروقة القرية، واستقبلنا أهلها استقبال الفاتحين.. وكان عمران يسير فى المؤخرة وحده.. مطرق الرأس، متواضعا كأنه ما فعل شيئًا..

# ليلة فى طوكيو

بقلم محمود البدوي

قال الكاتب الأمريكى توماس وولف : إذا أردت أن تعرف « نيويورك » فعش فى باريس ، وفى هذا القول اجتمعت كل الحقيقة .. من المدائن والناس..

وأردت أنا ( والقياس مع الفارق بينى وبين الروائى العظيم ) .. أن أعرف القاهرة فعشت فى « طوكيو » .. وحرام أن تظلم القاهرة فى هذه الأيام ، لأنها تمر بمحنة سوء الإدارة .. ومن هذه النازلة تتفرع جميع المساوئ .. سقطت بعض العمارات العالية فى القاهرة ، والذى شيد البناء ساقط . وكل من كان له اتصال بهذا العمل ساقط .. سقطت هذه العمارات ، ولكن لم تسقط الأهرامات التى شيدت منذ آلاف السنين لم يسقط منها حجر واحد .. ولم تسقط قلعة صلاح الدين .. ولم يسقط القضاء العالى .. سيظل شامخًا لأنه فخر مصر .. ورمز مصر الحضارة ، وحصن مصر الأمين.

حرام أن تقارنها بطوكيو مع التشابه الكبير فى عدد السكان .. وعدد الرءوس التى تتحرك فى الشوارع والميادين .. حرام على قاهرة المعز الشامخة بنيلها العظيم .. وبكل مآذنها ، وقبابها .. وبهجة أنوارها .. حرام أن تقارنها بطوكيو لأن قاهرة المعز .. غشاوة فى هذه الأيام وبعد أن تنجلى هذه الغشاوة .. قارن ما شئت وقارن . التقيت بالطبيب اليابانى تاشيو فى مدينة « هانشو » بالصين فى المستشفى الضخم الذى يعالج جميع المرضى بغير عقاقير .. وتحدثنا عن فعل الطبيعة فى جسم الإنسان .. وعن الأفذاذ من الأطباء الذين برزوا فى هذا المجال .. ولما علم بإعزازى « بأكفادن » قربنى إليه أكثر ، ودعانى إلى زيارته فى المستشفى الذى يعمل فيه بمدينة « طوكيو » .. ووجدته فى انتظارى على باب المستشفى .. ومعه طبيب فى مقتبل العمر فى مثل سنى ، خصصه ليتجول معى فى أرجاء المستشفى لأنه فى يوم راحته ويتقن الإنجليزية..

وطالعنى وأنا داخل إلى أجنحة المستشفى السكوت المطبق ، ودقة النظام ، واستعمال كل وسائل العلم فى كل خطوة .. ومراعاة خبايا النفس البشرية ومتطلباتها ، فالإضاءة مختلفة فى كل جناح .. وكذلك الممرضة والطبيبة .. فهن مختلفات فى الزى والسلوك ودرجة الجمال..

وقال لى الطبيب المرافق بعد جولة استغرقت ساعة :

- حدثنى الدكتور تاشيو .. برغبتك فى تحليل الدم ..
- نعم .. وأرجو هذا..

ودخلنا فى جناح طويل بلون البنفسج كل ما فيه يلمع .. وقدمنى المرافق إلى طبيبة شابة..

وخلعت معطفى الأبيض المعقم وجاكتتى وقميصى .. وأسلمت لها ذراعى..

فقالت برقة :

- سنأخذ الدم مرتين .. وبين كل مرة زمن..

ولاحظت وهى تمسك براحتى أن ظفر الإصبع السبابة .. مهروس..

فقالت وهى منكسة رأسها :

- هناك ظفر جديد ينمو مكان هذا .. انظر..

فقلت وأنا مأخوذ بعظمة الخالق !

- سبحان الخلاق العظيم .. إننا بكل علمنا وتقدمنا فى الطب والجراحة ، والفلك والدوران حول الأرض والصعود إلى القمر .. لا نستطيع أن نخلق مثل هذا الظفر .. وهو أضأل شىء فى جسم الإنسان ..
- هذا حق .. فلماذا يشمخ الإنسان بأنفه ويتكبر!!

وقالت وهى تضم ذراعى دون أن تنظر إلى وجهى :

- وحدك فى طوكيو .. ؟
- نعم ..
- أين تقيم .. ؟
- فى دايتشى ..
- رائع .. هناك الفتيات الجميلات يعملن فى كل الطوابق ! ..
- ولكنهن ينصرفن فى الليل .. بعد العاشرة !
- ويعدن لإيقاظك فى الصباح .. فغيابهن قصير ! ..
- ولكنى مشغول بعملى إلى درجة تفقدنى كل تسلية ..
- مهما يكن عملك .. ولكن خسارة أن تكون بطوكيو .. ولا ترى قصر الإمبراطور .. ولا ترى « جنزا » فى الليل .. ولا تزور « فوجى .. »
- زرت هذا كله فى المرة السابقة ..
- إذن فقد جئت إلى هنا من قبل .. ؟
- نعم ..
- لا شك أنك تحب المدينة .. وإلا ما كررت الزيارة..

وابتسمت بوداعة .. ووضعت عينة الدم مع بطاقة صغيرة باسمى وسنى فى طاقة مستديرة .. ونزل كل شىء بشريط كهربائى إلى المعمل .. وجاءت فتاة أخرى أصرت على أن تساعدنى فى لبس ما خلعته من ملابسى .. وقادتنى إلى حيث يوجد الدكتور .. تاشيو.

وفى مكتب الدكتور تاشيو .. قال لى ..

- سنشاهد معًا .. بعد ربع ساعة عملية تدليك للقلب فى الجناح ٢١ .. وسيقوم الدكتور هيكامو بعملية فى الكلية .. ويمكنك أن تشاهد هذه العملية على شاشة التليفزيون ..
- قد أكتفى بعملية تدليك القلب .. لأن عملية الكلية لا يتسع لها وقتى ..
- كما تحب .. ويمكنك الاكتفاء بعملية الإعداد للعملية الثانية ، وترى كيف تجهز الغرفة ، وفى هذا فائدة كبيرة لك ..
- شكرًا عظيمًا .. يا دكتور لكل أريحيتك وسماحة نفسك واهتمامك..

وكان مريض القلب سمينًا متوسط القامة ، ويبدو فى الخمسين من عمره .. ولم تكن ملامح وجهه يابانية وإن كان ينطقها..

ومده على طاولة بيضاء بذراعين ، وهو شبه ميت ، وحوله ثلاثة من الأطباء.. وكانت الأنوار فى زرقة ، وفى الغرفة رائحة أشبه برائحة البنفسج.

ووقفت أنا والدكتور تاشيو فى جانب .. وبدأ مسح الجسم بخفة من يد طبيب شاب ، قصير القامة ، هادئ الملامح والطباع .. ثم قامت طبيبة بعملية تدليك القلب .. ببراعة وسرعة .. وخيل إلىّ من سرعة يدها أنها أخرجت مضخة القلب فى يدها ثم ردتها..

وتنفس المريض وعادت عيناه تسبحان فى الزرقة .. وأمسكت ممرضة برسغة وجست نبضه..

وخرجنا إلى بهو جميل التنسيق مزهر .. وقدمنى الدكتور تاشيو إلى الطبيبة التى قامت بالعملية فهنأتها بحرارة..

وسألتها :

- هل كل العمليات ناجحة يا دكتورة .. ؟
- بالطبع .. إذا كانت للمريض رغبة فى الحياة !
- وإذا لم تكن عنده الرغبة .. ؟
- لا فائدة من الطب إطلاقًا ..
- ما أعظم حكمتك!

وأصرت على أن تقدم لنا الشاى والفطير .. فى صالة المستشفى العلوية..

ولاحظت من الوجوه التى التقيت بها فى المستشفى والشارع أن اليابانى سيظل يابانيًا فى خلقه وطباعه وسلوكه العام والخاص .. وأنه لا يختلط بأحد.. ولا يحب الاختلاط بالغريب .. وفى طبعه التفرد .. وهو جم التهذيب وسريع الابتكار والحركة ، كما أنه سريع التحول .. وهو ينحنى لك ثلاث مرات إذا أسمعته كلمة حلوة .. ولكن إذا أغضبته وأهنته طعنك بالسونكى .. والمرأة لاتزال تلبس الكومينو .. وتنحنى فى الشارع للسيدة الأكبر منها سنًا .. وتحمل طفلها على ظهرها بطريقة بديعة .. وتتحدث بصوت ناعم كزقزقة العصافير .. وكعاملة فى المتاجر الكبرى ، والفنادق ، والمطاعم ، وقاعات الشاى تسيل رقة وعذوبة .. وكأنها تخرجت فى مدرسة أعدتها لذلك العمل..

وتمشى الوجى فى الطريق .. يعنى بخطوات قصيرة .. كظاهرة مميزة على النعومة والرقة ، وهما من متطلبات الأنثى..

ولكنك تشاهد إلى جانب هذه من تلبس الزى الأوربى الخالص .. وتقود السيارة بسرعة ١٠٠ كيلو فى الساعة .. والجيل الحديث كله من النساء والرجال يتحدث الإنجليزية .. أما كبار السن فندر منهم من يعرفها .. إلا إذا كان يشتغل بالتدريس ومن أساتذة الجامعات.

وشكرت الدكتور تاشيو .. واستأذنت فى الانصراف..

فقال لى الدكتور :

- أتعرف الطريق إلى الفندق .. ؟
- نعم .. لقد جئت وحدى ..
- إذا اختلطت عليك المعالم فى الليل .. نستطيع أن نرافقك ..
- شكرًا .. طوكيو ليست غريبة علىّ .. أعرفها كما أعرف القاهرة .. وسأركب المترو .. وسينزلنى فى شمباسى ..
- نعم .. المترو أحسن من التاكس .. لأن المسافة طويلة..

وسلمت على الجميع .. واتخذت الطريق إلى المترو .. والليل زحف وخيم .. وسماء طوكيو تموج بالبالونات الزرقاء والحمراء والصفراء ، وهى تتلألأ وتسطع فى كل مكان .. وأينما ترفع رأسك تشاهدها تتراقص.

لم تتغير طوكيو عما شاهدته منذ سنوات .. سوى أن العمارات الحديثة انطلقت إلى عنان السماء .. وكثر هذا فى قلب طوكيو .. ولا تزال فى أطراف المدينة المنازل الخشبية القديمة من طابقين ومن طابق واحد .. وهنا يبرز الكومينو فى الطريق والبيت .. ويعد أجمل اجتماع على شرب الشاى..

المستشفى يقع فى حى هادئ وعلى طريق جانبى ، ولكن لما خرجت منه إلى الطريق العام شعرت بحركة المرور السريعة .. كان المارة يتحركون بسرعة عجيبة ويهبطون من الأفاريز إلى الأنفاق..

ونزلت درجات قليلة إلى نفق المترو .. ولم يكن فى المحطة أكثر من عشرة أشخاص من الرجال والنساء .. وعللت ذلك بكثرة القطارات التى تمر.

وركبت أول قطار قادم .. ويبدو أنه أحدث القطر التى سيروها على الخط.. فقد كان متأنقًا متألقًا وفخمًا .. ومقاعد العربة من القطيفة الزرقاء ، صفت فى صفين .. المقعد المفرد .. ومن هو على شكل كنبة طويلة .. فاخترت المفرد .. ولم يشعر بدخولى الركاب .. لانشغالهم بحالهم .. وللسكون المطبق على العربة .. وفى المحطة التالية ركبت جماعة امتلأت بهم المماشى .. وما جلسوا حتى عاد السكون .. وبرز راكب واحد من بين ركاب العربة جميعًا .. أحس بوجوده كافة الركاب .. فقد تمدد على كنبة طويلة شغلها وحده .. ومد حذاءه فى وجه الركاب جميعًا .. وبدأ يهذى بصوت عال .. وبكلمات غير مفهومة .. كان فى أقصى حالات السكر .. ويرتدى بنطلونًا غامقًا وصدارًا من الصوف فى لونه .. وكان فى قامة اليابانيين .. ولكنه ممتلئ الجسم بادى العضلات كأنه صب فى قالب صبًا ، وخرج على هذا الطراز المتماسك.

وظل يهذى والعينان تقدحان بالشرر وفى جلسته وكلامه وقاحة .. وعجبت لمقابلته بالصمت والسكوت من الجالسين حوله .. وليس من طباع اليابانى الجبن ولا الاستكانة .. فهو أشجع خلق اللّه .. ويهزأ بالموت ، والحياة عنده رخيصة ، ويستهين بنفسه فى لحظات كدرت عليه الحياة وضاق بها .. شاهدت مثل هذه العربة وهذا المخمور فى فيلم أمريكى .. وقابله الجالسون فى العربة الأمريكية بالصمت الأخرس الذى طال .. ودعا إلى الضجر والنفور والتقزز .. ثم تحرك جندى معوق فى العربة وأسكت هذا المخمور إلى الأبد.

فهل يحدث مثل هذا الآن فى العربة اليابانية التى أركبها .. ؟ حدث أن قال المخمور اليابانى كلامًا أضحك فتاة كانت تجلس إلى مقعد بجانب مقعدى.. فلانت ملامحى لضحكتها .. وضحكت مثلها..

وانتصب المخمور وهو لا يكاد يتماسك واتجه إلينا وفى عينيه يقدح الشرر الضارى ويبرز الجنون الأعمى..

وقبل أن يصل إلى الفتاة .. أدركته يد قوية من جالس طرحته أرضًا..

وكان القطار فى هذه اللحظة يهدئ من سرعته وهو داخل المحطة ، وعندما فتح الباب وتوقف القطار طرح اثنان من الركاب بالمخمور وألقياه على الرصيف.

حدث كل هذا فى خطف البرق وسرعة عجيبة حتى إن نصف ركاب العربة لم يشعروا بالذى جرى..

وتحرك .. وبدت الأنوار القوية تلمع فى الشوارع وفى سقف العربة ، والكل فى سكون .. وخفت من هذا السكون .. وخشيت أن يكون هذا القطار من الطراز الذى يتحرك من غير سائق .. فأنا منذ ركبت لم أر وجه سائق ولا سحنة كمسارى . واستقر رأيى على النزول فى أول محطة يقف فيها القطار..

ونزلت والليل من حولى كله ضياء ، والجو رائع منعش .. والبالونات تسبح فى السماء من كل الألوان وكل الأحجام..

ولزمت الرصيف الطويل متجهًا إلى الوجهة التى أتصور فيها الفندق .. وكلما قابلنى عابر سألته عن الفندق ، وجدته بالمصادفة لا يعرف الإنجليزية .. وتكرر ذلك وأنا أسير فى اتجاه واحد ثم أصبحت أدور وألف وحدى .. وأصبحت المفرد تحت البالونات .. فهل خلت المدينة التى يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين من سكانها ومن البوليس .. وهل قادتنى قدماى إلى ضاحية ساكنة جامدة مهجورة من ضواحى طوكيو .. وأنا لا أدرى .. ؟

وشعرت بالخوف يشل حركتى .. وفى مثل خطف البرق لمحت عربة متوسطة من عربات السياحة اليابانية التى يعمل مثلها فى المطار .. فاستوقفتها صارخًا بالإنجليزية .. فوقفت وسألت عن الفندق..

فقال الراكب الذى بجوار السائق :
- انزل واركب المترو .. خمس محطات! ..

وشكرته وأنا شاعر بالغيظ..

واستأنفت السير وأنا أقول لنفسى ما أشد حماقة الإنسان .. لماذا لا أركب تأكسيًا وأتخلص من هذا الضيق . والمسافة ليست بالبعد الذى أتصوره فالبالونات لا تزال تتموج فوق رأسى والبالونات كلها فى قلب « جنزا » والفندق فى طرف من جنزا .. فلماذا الهلع .. ؟

وتخطيت الشارع وقد عاد إلى قلبى وبصرى الهدى .. لأشير إلى أول تاكسى يمر .. وفيما أنا أهم بذلك لمحت ضوءًا صغيرًا من لافتة تشير إلى» نزل». لافتة بالإنجليزية مضاءة بحروف صغيرة جدًا تتجاوزها العينان فى الليل .. ولكنى قرأتها بقلبى وبصيرتى..

واتجهت إليها وقلبى يزداد وجيبه لشعور لا أعرف كنهه..

وطالعنى وأنا أجتاز ممر الحديقة المعشب ، بسكون جامد ، حتى تصورت أن ليس بالنزل أحد .. ووجدت على كرسى بجانب الباب المغلق شيخًا يابانيًا.. أفسح لى الطريق بعد أن قرع جرس الباب ، وأدركت من زيه وعمله أنه خفير النزل..

وخلعت حذائى ومشيت تحت الأنوار الخافتة على طرقة مفروشة بالحصر المضفر الملون .. إلى حيث توجد فتاة فى لباس الكومينو .. جالسة على حشية مزركشة ، وبجانبها طاولة ورفوف من الخشب .. وحييتها وأنا أقدم لها جواز السفر .. صامتًا .. مستغربًا .. محدقًا فى وجهها ببلاهة .. أخذتنى الرجفة..

وسمعتها تقول بإنجليزية سليمة :
- لا داعى لجواز السفر .. هنا نزل خاص ويكفى أن تدون اسمك وعنوانك فى هذه البطاقة.

ودونت ما طلبته وأنا أحدق فى وجهها وأزداد تحديقًا واستغرابًا .. وسلمتها البطاقة .. فقرأت ما فيها..

وقالت .. بصوت عال ..
- طبيب ..
- وكأنها سرت لأنى طبيب .. وأحمل هذه المهنة..

وقلت :
- نعم .. وأنا قادم من مستشفى الدكتور تاشيو .. ورأيت هناك طبيبة تشبهك تمامًا .. شبهًا يدير العقل .. بل أنت فى الواقع .. التى كانت هناك .. وهذا ما جعلنى فى شبه ذهول ..
- أنا .. أنا ما برحت هذا المكان .. وعملى فى هذا النزل فقط ..
- ألك توأم .. ؟
- أبدًا..

وضحكت من قلب طروب .. وقلت وأنا أضحك أيضًا ..
- إن هذا لعجيب وهذه ليلة العجائب ..
- أهذه أول ليلة لك فى طوكيو .. ؟
- لا .. نزلت طوكيو منذ عشرة أيام .. وأقيم فى فندق دايتشى .. وحدث أن ضللت الطريق إلى الفندق ، وأنا راجع وحدى من المستشفى .. وهدانى قلبى إلى هذا المكان .. لأقضى فيه ليلة .. بدلاً من الدوران بالتاكسى ..
- جميل أن تستدل علينا فى الليل دون دليل .. لأن اللافتة الخاصة بالنزل مكتوبة بحروف دقيقة لا تكاد تقرأ ! ..
- هذا من حسن حظى ..
- والآن .. سأريك الغرفة..

وسارت أمامى فى طرقة مستديرة مزينة بالأصص والورود والزخارف اليابانية .. وعلى الجانبين حجرات منها الصغير والكبير ، تقسم بأبواب خشبية متحركة حسب الرغبة..

وقالت تشير إلى غرفة وصلنا إلى بابها : ــ اخترت لك هذه الغرفة .. وأرتنى غرفة جميلة مفروشة بالحصر والحشيات والمساند .
- لا توجد أسرة فى نزلنا وستنام على الحصير !
- لقد نمت على الحصير مع جدتى فوق سطح بيتنا .. أعوامًا طويلة .. فهى ليست غريبة على مثلى..

ونظرت بتأمل ثم قالت :
- سأجىء لك بقميص .. فليس معك بيجامة !
- شكرًا .. وأستطيع أن أنام بالبنطلون والقميص.

وأزاحت بابًا جانبيًا صغيرًا .. وهى تقول بزهو لأنها تعرف أن ما تقوله يسر كل مسافر ..
- والحمام داخل الغرفة .. ورأيت المناشف والمرايا والنظافة والأناقة..

وسألتها وأنا أحدق فى البانيو الصغير الحجم .. وهو معد قطعًا للمرأة قبل الرجل ..
- سمعت أن المرأة اليابانية تستحم كثيرًا .. فكم مرة فى اليوم ..
- ثلاث وأربع مرات ! ..
- ثلاث وأربع مرات .. وليس عندكن النيل مثلنا .. وإذا وجد النيل فكم مرة .. ؟
- ولا مرة .. !! وضحكنا كثيرًا .. لأن هذا ما يحدث فعلاً..

وسألت : أتعشيت .. ؟
- أبدًا ..
- سنعد لك العشاء .. ودلتنى على مائدة الطعام ..
- أتحب أن تتعشى الآن .. ؟
- الأحسن بعد ساعة .. لأنى أكلت فطيرًا مع الشاى فى المستشفى .. ــ كما تحب..

وتحركنا فى الطريق إلى الأمام .. لترينى حديقة « النزل « ومرت بنا عاملة وهى تمسح عبراتها .. وسألتها مرافقتى بالإنجليزية :

- ما الخبر .. ؟ فردت هذه اليابانية وهى تشهق حابسة عبراتها .. واجتازتنا مسرعة فسألت مرافقتى فى خجل :
- ما الذى جرى .. ؟
- فتاة من العاملات فى النزل ماتت .. مع أن الطبيب كان عندها منذ ساعة وطمأنها .
- ما الذى كانت تشكو منه .. ؟
- أشياء كثيرة .. عدة أمراض ..
- أمتزوجة .. ؟
- أبدًا .
- هل أستطيع أن أراها .. ؟ سأقول لماما .. وماما .. صاحبة النزل لأن بابا ميت..

وجلسنا فى البهو على الحشيات .. وجاءت ماما سريعًا ، تلبس البياض فى بياض .. لأنها بيضاء فى قمة رأسها وما لفته حول عنقها .. وتدثرت به حتى قدميها .. وطالعتنى بوجهها السمين ، وبعينيها الساكنتين .. وكان معها شيخ يابانى جلس صامتًا يحدق فى وجهى .. ولم يقدمه لى أحد .. فأدركت أنه من أقربائهن..

ولم يطل الصمت .. حدثت الفتاة أمها برغبتى .. وتحركنا جميعًا إلى غرفة الميتة..

ودخلت وهم حولى وركعت على الأرض بجانب الميتة .. لأنها كانت مطروحة على خشية .. وتبدو صفراء ذابلة كأجمل الورود.

ورفعت رأسى وأشرت إلى النافذة .. وهم يتفرسون باستغراب وفضول.

ونظرت إلى عينى الميتة وحركت الجفن .. ورأيت فى الشعيرات الدقيقة للعين الحياة .. الحياة ..

وقلت لمن حولى بزهو :

- إنها لم تمت..

وخرجت من الجموع الواقفة همهمة عالية ، وصرخة عفوية مكتومة ، مع كل ما هم عليه من تهذيب ورقىّ.

وتحولت سريعًا إلى الفتاة مرافقتى وقلت لها :

- استدعى طبيبها أو أى طبيب يابانى حالاً ..
- وأنت !! ..
- أنا لا أستطيع أن أزاول المهنة هنا .. من غير تصريح ..
- أرجوك يا دكتور « حسن » أن تنقذها .. لعنة اللّه على التصريح .. إن حياة هذه المسكينة على يديك ..
- سأشترك مع الطبيب اليابانى عندما يجىء .. فلا تراعى..

وكنت أعرف أن الطبيب فى اليابان يأتى فى زمن يقل عن ثلاث دقائق .. وأقل من هذا الزمن يأتى الإسعاف والبوليس .. ولذلك لم أشعر بالقلق على المريضة ولم يؤنبنى ضميرى .. لأنى تركتها من غير علاج بعد أن عرفت أنها حية..

وجاء طبيبها وقدمونى له .. وحدثته على عجل .. وأصبحت أنا وهو والسيدة الكبيرة والفتاة مرافقتى داخل الغرفة وخرج الجميع وأغلقنا الباب.

وكشفت الفتاة عن صدر زميلتها .. وشعرت بالخجل وأنا أرى هذا الجمال الأسر .. سبحان من أعطى المرأة اليابانية كل هذه النعومة وهذه الأنوثة وهذه الفتنة وسلبها من الرجل.

وقفت خجلاً مبهورًا والفتاة تكشف فتنة الأنثى فى منبع الأمومة والرضاعة والحنان.

كان الطبيب اليابانى يرغب فى إعطائها حقنة فاعترضت بأدب .. وقلت له :
- إنها الآن فى حاجة سريعة إلى تدليك أولاً .. وبعد ذلك تأتى الأدوية والحقن .. وأخذ الطبيب بوجهة نظرى وانحنى عليها وأخذ يدلك قلبها .. ونظرت المرافقة إلى ناحيتى .. فابتسمت وأدركت غرضها..

وقلت للطبيب اليابانى بأدب :
- هل تسمح لى بمساعدتك يا دكتور .. ! فتنحى جانبًا..

وركعت بجانب الميتة .. وحدقت فى عينيها .. ووضعت خدى على قلبها .. ولمست يداى صدرها .. وأخذت أدلك فى نعومة ودقة.. ولأول مرة أنسى نفسى وأضع فمى على فمها وأنفخ فيه بحرارة .. وشعرت بشرايين الحياة . وفتحت المريضة عينيها بثقل . وفى غمرة الفرح بنجاة الفتاة طوقنى الطبيب اليابانى وكل من كان فى داخل الغرفة.

وقلت للطبيب :
- إن هذه الخبرة تعلمتها منكم والدكتور تاشيو هو أستاذى وأنا فخور به كأستاذ.

وأحنى رأسه محييًا .. ورأيت أن يبقى هو بجانب المريضة ، ويعطيها ما يشاء من الأدوية.

وقادتنى المرافقة إلى غرفة الطعام .. وهى تطير من الفرحة..

وجلست إلى طاولة مستديرة كالطبلية .. وحولى النقوش والزخارف على الجدران .. والتماثيل الخزفية فى الأركان .. وكان الضوء خافتًا والقناديل تسبح فى زرقة القاعة .. والموسيقى اليابانية الخفيفة تذاع فى نغم رتيب يجلب النعاس .. فأحنيت رأسى وأسبلت عينى..

وأفقت على رنة صحن وضع أمامى وفيه الفوطة المشبعة بالبخار .. فرفعت رأسى إلى وجه الفتاة التى وضعت الطبق..

وأحسست برعشة الفجاءة التى تهز كيان الجسم كله فى لحظة أسرع من خطف البرق ، ومن رعشة الجفن ومن سريان التيار الكهربائى .. لحظة مباغتة سمعت لها دقات قلبى وكأنه المطرقة ، فى عنف دقه .. لحظة يذهب لمثلها العقل .. وكانت هى بقدر ما تلاقت أعيننا الأربع ، وحدقت وأتسعت ، وأرتجفت الأجفان بقدر ما غاب إنسان العين بعد ذلك من هول المفاجأة.

وجرت إلى البطاقات التى فى المدخل .. وأخرجت البطاقة الخاصة بالنزيل الجديد الذى وفد الليلة وقرأت الإسم .. وسألت الفتاة الموكلة بالبطاقات عن اسمى وجنسيتى للتأكيد .. فلما عرفت كل هذا وتيقنت منه عادت تحمل أطباق الطعام فى تباطؤ وجمود ، وكأن ما حدث لم يكن قد حدث.

وكنت أمسح بفوطة البخار وجهى وعينى وأشعر بما تفعله هذه الفوطة من راحة للأعصاب.

واشتقت إلى أن أسمع جرس صوتها بعد هذه الغيبة الطويلة .. وهل تغير كما تغير عودها فقد سمنت قليلاً وثقل خطوها.

وسألتها دون أن أرفع وجهى عن الأطباق : ــ هل جنزا بعيدة عن هنا ! ..
- بعيدة جدًا .. أربعون دقيقة بالتاكسى ..
- وإذا مشيت .. ؟
- تصل صباح الأربعاء..

وكنا فى يوم الاثنين .. فأدركت مداعبتها .. وسألت بجفاء وهى تحرك أشياء على المائدة :
- وما الذى تريده من جنزا فى الساعة التاسعة ليلاً ..

- أريد أن أرى السفينة ..
- أية سفينة .. ؟
- السفينة الراسية على شط جنزا ..
- غرقت من سنين وتحطمت قمراتها ..
- وركابها .. ؟
- غرقوا جميعًا .. ونجا اثنان .. رجل وامرأة .. وقد طوح بهما الزمان .
- ولكنهما التقيا ..
- أبدًا أخلف الرجل وعده .. كالعادة .. وعاشت المرأة فى محنتها ولوعتها شبه مذهولة .. ثم تمالكت نفسها واستردت أنفاسها وأخذت تعمل فى كل مكان فى المطاعم والمحلات .. وأنساها العمل لوعتها وحبها القديم .. وهكذا تمر الأيام .
- قد يكون للرجل عذره .. وتكاليف السفر باهظة ..
- أبدًا .. يستطيع أن يعمل حمالاً فى باخرة .. ويأتى كما وعدها ..
- اعذريه لفقره .. لقد حاول بكل ما يملك من جهد أن يسافر كطالب إلى بكين أو هونج كونج .. ليكون قريبًا منها ، ولكنه فشل بعد جهود مضنية مرغت نفسه فى التراب .
- لا فائدة ترجى من الكلام الآن .. هل تريد شيئًا آخر .. ؟
- ستذهبين معى الليلة إلى جنزا ..
- أنا .. كيف تطلب من سيدة متزوجة هذا الطلب .. أنا زوجة وأم..

وابيض وجهى وأطرقت .. زوجة وأم .. الآن جاء لسع السياط..

وأطرقت وأخذت استرجع شريط الذكريات .. منذ سبع سنوات وفى مثل هذا الشهر .. شهر أكتوبر .. وقفت وحدى فى طرف .. جنزا .. بعد أن عبرت الكوبرى الصغير والقناة . واستدرت إلى يسار وكانت الساعة العاشرة ليلاً والجو صحوًا لطيفًا .. لا تؤثر برودته على الواقف فى المكان يتأمل ما حوله حتى إن طالت وقفته.

ولمحت على بعد خطوات منى بناية على شكل سفينة عائمة على الأرض .. وقناديل قمراتها تتوهج بلون فسفورى جذاب .. وساريتها مرفوعة تناطح البالونات المتأرجحة فى الحى كله.

وفى وقفتى ، وأنا منبهر طارح ، وجدت من يسألنى :

- أتود أن تشاهد السفينة .. ؟ وأفقت على أنثى رقيقة تجاوزت فى وقفتها كتفى..

وتأملت عينيها نصف المسبلتين ، وقوامها ولباسها الأوروبى البسيط من قطعتين جونلة وبلوزة .. لم تكن تلبس الكومينو ..

- وبكم المشاهدة .. ؟
- الساعة بألف ( ين ) .. فى القمرة..

ولم أعقب .. وظل التفاعل النفسى والجذب والشد .. يعمل .. ويعمل بضراوة .. وسقط شىء علينا من سماء طوكيو أشبه بالبرد أو نتف الثلج .. فضحكنا .. وظلت هى ممسكة بالحبل ..

- إذا لم يكن معك هذا المبلغ .. نستطيع أن نتمشى بعض الوقت .. المهم أن نبقى معًا ..
- ولماذا أتعبك بالمشى .. سندخل السفينة.

وفى الطابق الثانى احتوتنا قمرة ضيقة أشبه بقمرة البواخر .. وفيها كل أثاثها ومعداتها .. وشربنا النبيذ والساكى .. وتحدثنا عن القاهرة وطوكيو .. بحب وحماسة..

وسألتنى :

- أين تقيم .. ؟
- فى دايتشى ..
- إنها على بعد خطوات من هنا .. سأكتفى بعملى الليلة فى السفينة وأخرج معك .. لنتجول فى جنزا..

وشعرت بالسعادة تغمر قلبى .. وسرنا فى الليل الحالم فى حى الألف ملهى وألف حى كأنما رسمه ووضع له الخطوط فنان لا يجارى فى عبقريته ونبوغه .. ملاه زاهية بألوانها وقناديلها

ورسومها .. فى صفوف تدور وتطول .. وكلما دارت تألقت إلى لون آخر .. أكثر جمالاً وأشد فتنة .. وعلى كل باب تقف فتاة فى حفل من الزينة والعطر .. والكومينو ينسحب إلى الأرض..

وفى الداخل ترى صفًا من الفتيات اللابسات الأقنعة .. جالسات فى صمت أخرس تحت الضوء الشاحب .. يتفرسن فى كل داخل .. ومنهن مع كل ما فيها من رقة وعذرية وجمال .. من تقع فريسة سكير فظ يذيقها كل أنواع العذاب .. وتتحمله بصبر عجيب .. وتظل تعمل فى المكان .. والسكير المتشرد يتردد ويختار .. عجبًا للدنيا بتصاريفها .. فلا يقع مثل هذا فى جنزا وحدها ولا فى طوكيو وحدها .. وإنما فى كل مدينة يقع فيها ليل وملهى..

بعد أن تجولنا أنا وفتاة السفينة فى طرقات الملاهى وشبعنا من النظر .. اخترنا ملهى من طابقين لنأكل ونسمع فى هدوء الموسيقى الخفيفة.

وجلسنا متجاورين إلى مائدة مستطيلة فى نصفها زهرية .. وجاءت العاملة بالفوطتين المشبعتين بالبخار .. كل واحدة فى طبق .. كأول ما يقدم للزبائن..

وتناولت فوطتى .. وأخذت أمسح وجهها وأضغط على خديها وأنفها وهى تضحك مسبلة عينيها .. وساعدنى على الاسترسال فى العملية خلو المكان .. وفعلت هى بفوطتها فى وجهى مثل ما فعلت..

وخرجنا كأننا نسبح فى الجو .. وقلت لها :
- أين تقيمين .. سأوصلك إلى منزلك .. ؟
- سأذهب معك..

وحاولت أن أقول شيئًا ..
- لا تفتح فمك..

وانقطعت أسبوعًا كاملاً عن عملها فى السفينة لتبقى معى . وتصاحبنى فى كل جولة .. وفى يوم سفرى كان قلبى يتمزق وروحى ضاعت..

وسافرت لأعود بعد شهور قليلة .. ولكنى عدت بعد سبع سنوات كاملة.. ويجمعنى القدر بها فى هذا النزل .. فى ليلة عجيبة بكل تصاريفها .. يجمعنا بعد أن طوح بنا الزمن ، وتصورنا أن الموت فرق بيننا .. وخيم اليأس الذى لا رجاء بعده..

ولكن ها هى الآن واقفة أمامى بلحمها ودمها وكل ما فيها من جمال ورقة.. واقفة فى هذا النزل وكأنه لم يحدث بيننا فراق ولا غيبة طويلة .. واقفة بكل أنوثتها .. ولكنها جامدة.

وذلك لأن العواطف المتأججة الصارخة أخرسها اليأس والزمن الطويل .. وكان اللقاء المفاجئ كأنه يمسح على جسد مريض طال مرضه وطالت بلواه.. بغير أمل فى الشفاء.

قالت بظل ابتسامة :
- تحدثت مع المدام وستذهب معك مس « أكى » إلى جنزا ..
- أريدك أنت وإلا فلا داعى لهذه الجولة .
- سأجعل المدام تتصل بزوجى وتستأذنه ..
- ما عمله .. ؟
- إنه موسيقى يعمل فى مسرح ميكامو.

لابد أن يكون زوجها عازفًا فنانًا شاعرى الطباع .. فمن كان فى مثل رقتها وطباعها لا يتحمل خشونة رجل آخر ..
- وابنك .. كبير .. ؟
- عمره ست سنوات

وأحسست بالأرض تدور
- أحب أن أراه.

فى الصباح ستراه .. وهو يوزع جريدة أساهى قبل أن يذهب إلى المدرسة .
- أمعك صورة له !..
- معى ..
- أرينيها .. أرجوك ..
- أخاف أن يغمى عليك .. وأنت طبيب..

وشعرت بالدنيا تدور فعلا قبل أن أرى الصورة..

## الغزال فى المصيدة

بقلم محمود البدوي

نزلت "سنية" من الترام تحمل صغيرها على صدرها.. وكانت شمس يوليو حامية والحر يلفح الوجوه.. وصعدت فى الشارع الطويل المؤدى إلى المستشفى وهى تحس بالتعب الشديد وبوخز الإبر فى عظامها ولحمها.. فقد أرهقها مرض ابنها ومزق أعصابها.. عالجته بكل الوصفات المعروفة دون نتيجة.. وأخيرا ذهبت به إلى "المستوصف "القريب من بيتها فأخبرها الطبيب بأنه مريض بالحمى ويجب نقله إلى المستشفى فورا، وإلا ضاع بين يديها.. سمعت هذا وطار قلبها شعاعا.. وحملته إلى المستشفى وهى تحبس عبراتها..

ولأنه وحيد وقطعة من كبدها وجاءت به بعد موت اثنين من ابنائها.. فقد تجمعت كالقوقعة واحتضنته وحرصت على أن يبقى لها.. ولا يموت كما مات من قبله.. وأن تزود عنه عاديات الأيام.. وكل الاعاصير التى تهب فجأة فى وجه الفقير.. وأن تكافح لتمرضه بكل ذات نفسها وكل ذرة فى جسمها..

وكانت الشمس تتوسط كبد السماء، ولم تجد "سنية" مكانا للظل فى الشارع، وكان هناك صف من العربات التى تجرها الخيل واقفة فى بداية الشارع، تنتظر النازلين من الترام، لتهون عليهم مشقة الطريق إلى المستشفى، أو إلى أى مكان آخر فى هذا الجو الشديد الحرارة، ولكن "سنية" لم تكن ممن يركبن العربات، فسارت وحدها فى الطريق الصاعد، ولمحت عن بعد نسوة يتقدمنها فى ملاءات سوداء.. نساء يلبسن نفس زيها.. وفى مثل فقرها وبأيديهن الصرر، ووراءهن أطفال يتدحرجون فى الشارع الساكن..

وعندما مالت فى الطريق الرملى إلى اليسار، سألت عن المستشفى بعد أن اختفى أثر النسوة.. فقد خشيت أن تتوه بعد أن تكشفت أمامها رمال الصحراء.. وتعددت البنايات الكبيرة..

وعرفت المستشفى من عربات الطعام والفاكهة الواقفة بجانب السور والتى يحط عليها الذباب بكثرة.. ورأت سيارة من سيارات نقل الموتى قريبة من الباب الواسع.. ونساء فى سواد يولولون.. فانقبض قلبها لمنظر السيارة وحال النسوة..

وكان الباب مفتوحا على مصراعيه لأنه يوم زيارة عامة ..فدخلت "سنية" مع الداخلين..

ودلوها على غرفة الاستقبال.. وكشف الطبيب على الصبى ..وحملوه عنها إلى عنبر فيه غيره من الأطفال المرضى.. وكانوا فى حالة تعيسة.. وجوه شاحبة وعيون تبدو واسعة بعد أن هزل

اللحم وبرزت العظام.. وقذارة فى الفراش وفى الأرض.. وأصاب "سنية" الذعر ولكن ماذا تفعل.. أرقدوا ابنها على حشية عليها مــلاءة قذرة تغير لونها من فرط ما سكب عليها وكان الذباب يتكاثر فى العنبر والجو خانقــا..

وبقيت "سنية" جالسة على الأسفلت بجانب ابنها ملتصقة بالسرير ودافنة رأسها فى الملاءة القذرة التى تغطى الحشية.. كان الصبى جامد النظرات، ساكن الجوارح.. ولكن على وجهه الرضا لأنه يحس بوجود أمه عن قرب..

ووقفت ممرضة على رأس "سنية" وقالت لها:

ـ تعال يا ست..

ـ إلى أين..؟

ـ ستأخذين حقنة..

ومشت وراء الممرضة فى الطرقات الطويلة.. وفى بناية فى حديقة المستشفى حقنها طبيب بحقنة ضد التيفود.. وخرجت من البناية لتعود إلى ابنها ..ورأت بابا مفتوحا فى غرفة قليلة الضوء.. غرفة ساكنة باردة فى هذا الحر.. فدخلت من الباب تنظر.. رأت جسم صبى ملقى فى حوض كأحواض السمك وعليه قطع الثلج.. وتقدمت لتنظر وقد أقشعر بدنها.. وأدركت أن الصبى ميت وهذه هى الثلاجة.. وحاولت أن تصرخ ولكن خانها صوتها.. وخرجت مهرولة إلى عنبر ابنها.. وهناك احتضنته.. ودفنت رأسها فى صدره..

واستغرقت "سنية" فى وضعها ونسيت نفسها ثم استفاقت على صوت التمرجى يقول لها بغلظة:

ـ ميعاد الزيارة انتهى.. اتفضلى.. روحى..

وسألته:

ـ أروح.. واترك الولد..؟

ـ نعم.. هذا مستشفى.. وليس بيتا..

وأحست بحرقة، أحست بمن يخنقها، تتركه لهم ليضعوه فى حوض وعليه الثلج كالذبيحة.. أبدا.. أبدا ولو قطعوها إلى قطعتين.. تتركه هكذا وهو بين الموت والحياة.. أبدا..

أخرجوها من العنبر بالقوة.. ومن باب المستشفى.. ولكنها ظلت لاصقة بالسور..

***

وعندما خيم الظلام على الصحراء وشمل السكون المنطقة ..اقتربت من الباب ودفعت خمسة قروش للبواب ودخلت متسللة كاللصة.. كانت تعرف مكانه رغم تعدد العنابر وكثرة الطرقات..

ودخلت العنبر وهرولت إلى سرير ابنها وهى تدير عينيها فى الضوء الباهت بذعر ورجفة.. لم يكن هناك ممرض ولا ممرضة.. وكانت تسمع بكاء الأطفال فى العنبر فيرتجف قلبها.. واحتضنت ابنها وأحست بالحرارة الشديدة فى جسمه ..وكان الصبى يهذى وجسمه الصغير يرتعش وألصقت قلبها بقلبه.. وخيل اليها أنها لا تسمع ضربات القلب الصغير.. وألصقت خذها بخده وأخذت تبكى.. ابنها يموت..

وخرجت من العنبر مهرولة تبحث عن طبيب لينقذ ابنها ..وظهر رجل فى رداء مصفر فى نهاية الطرقة.. فلما رآها أسرع نحوها وأمسك بها وقال بخشونة:

ـ كيف دخلت المستشفى فى مثل هذه الساعة..؟

ـ ابنى يموت..

ـ وما الذى جاء بك فى الليل.. وكيف دخلت..؟

ـ من الباب.. ابنى يموت..

ـ من الباب.. مستحيل.. تعالى.. نسأل البواب.. وليلته سوداء إن كان قد أدخلك..

وأمسك بها من يدها بعنف وجرها إلى البواب.. وأنكر هذا أنه رأى حتى ظلها..

وقال التمرجى وهو يحد النظر إلى وجهها:

ـ إذن فقد تسلقت السور لتسرقى.. ولا بد من تسليمك للبوليس..

ـ سرقت..!؟

ـ أجل.. والعنبر ملآن بأشياء الحكومة.. والمخزن مفتوح.. وكل ليلة تسرق أغطية وبطاطين وآلات طهى.. ولا نعرف السارق.. وأخيرا وقعت..

وأخذت تتوسل..

ورأى لأول مرة جمالها الباهر وصباها.. وعينيها والثوب الأسود والمنديل الأزرق يغطى الرأس ويزيد وجهها نضارة وتألقا..

وبكت..

ـ اعمل معروف.. أنا مسكينة والولد بيموت.. أليس عندك أولاد..

ـ عندى ولكنى لا أتسلق السور فى الليل..

ـ البواب.. كذاب.. حلفه.. لقد دخلت من الباب..

ـ طيب.. تعالى.. وفى الصباح سنسلمك للمعاون وهو يتصرف..

وسحبها إلى غرفة فى حديقة المستشفى..

ـ نامى هنا إلى الصباح..

وأغلق عليها الباب..

ظلت متيقظة فى الظلام تنظر إلى السقف.. وهى ترتعش من الخوف.. كانت قد فوجئت بهذا الاتهام الذى شل حركتها وإرادتها تماما.. ورقدت خائفة.. وبعد ساعة أحست به يدخل عليها ويرقد بجوارها..

وقاومت بكل شبابها وأنشبت أظافرها فى لحمه.. ولكنه لم يتراجع واغتصبها وهو يسيل عرقا من فرط مقاومتها العنيفة..

وفى الصباح لم يسلمها للمعاون وتركها تذهب إلى العنبر الذى فيه ولدها..

ومضت أيام وهى فى داخل المستشفى بجانب ابنها..

وجعلوها تغسل بلاط العنبر وطرقات المستشفى وتحمل التراب والنفايات.. جعلوها تفعل كل هذه الأشياء لكى تبقى بجانب ابنها.. ومادام ليس معها نقود.. فقد كانت تدفع عرقها..

كان كل همها أن يعيش الصبى.. ومادامت بجانبه ترعاه سيعيش..

***

وظلت عشرين يوما فى المستشفى..

وكانت تذهب إلى البيت خطفا ثم تعود جريا إلى المستشفى.. ونسيت زوجها الفران.. كان عمله كله فى الليل، فإذا جاء فى الصباح عرف أنها فى المستشفى ونام.. كان يحب الولد وكان مطمئنا عليه مادامت أمه بجانبه..

ظلت تكنس وتمسح البلاط وترضخ لكل ما تطلبه منها الممرضات وهى فى كل يوم خائفة أن يقدمها ذلك الرجل للبوليس كسارقة.. ومن السهل على مثله أن يلفق لها تهمة كبيرة.. كانت تخاف منه وكان هو يخاف منها أن تحدث الناس بفعلته.. تحكى القصة لطبيبة أو لممرضة وهذه تأخذها إلى مدير المستشفى ثم يصل الأمر إلى النيابة فى الحال، كان يخاف منها أكثر مما تخاف منه.. وفى كل يوم كان يحب أن تبقى فى المستشفى وأن يراها بعينيه لأنها لو خرجت ستتحدث.. ولو تحدثت بما جرى لها سيحرضها الناس على إبلاغ البوليس..

كان وجودها تحت سمعه وبصره يطمئنه.. كما أنها كانت تطمئن عندما تراه فى طرقات المستشفى ساكنا جامدا.. فتدرك أنه نسى أمرها..

وفى ظل هذا الخوف الرهيب المتبادل قضيا معا عشرين يوما يطوقهما سور المستشفى الكبير وهما فى عداء باطنى خفى قاتل..

كان يكرهها وكانت تكرهه..

كانت تكرهه لأنه سبب لها كل هذا الرعب.. وكان يكرهها لأنها قد تكون السبب فى فصله من عمله وتشريده فى الطرقات..

***

فى الظهر.. مر الطبيب وكشف على الطفل.. وسمح له بالخروج..

وخرجت به "سنية" من باب المستشفى فى مثل الساعة التى دخلت فيها منذ ثلاثة أسابيع.. وكانت الشمس حامية والحرارة أشد ضراوة.. ومشت فى نفس الطريق الذى جاءت منه من قبل..

كانت فى هذه المرة تنزل ولم تكن تصعد، وكان المشى أكثر سهولة.. ولكنها كانت تشعر بالانقباض.. كان الصبى قد شفى تماما واسترد كامل صحته.. ولكن عافيته لم تشعرها قط بالفرحة.. كان هذا الصبى هو السبب فيما حل بها من بلاء، لو كان معها نقود لمرضته فى

البيت ونجت من هذا الوغد.. مرضته فى البيت بعيدا عن العيون.. ودون أن تخبر أحدا بنوع مرضه.. ولكنه مرض بحمى معدية.. ولا بد أن يشيع الخبر ويتسرب من أى شخص.. وكتمانه من المستحيل.. وسينقلونه إلى المستشفى رغم أنفها..

إن ما حدث كان مقدرا لها والمحنة التى مرت بها لن تغفر لها خطيئتها قط.. كان يجب أن تستقتل ولو مزقها إربا وقطع أنفاسها..

وقبل أن تخرج من الشارع الرئيسى مرت بجانبها سيارة صغيرة وأطل رأس رجل فى قميص مفتوح وأوقف السيارة وقال برقة:

ـ تعالى أوصلك.. يا سنية..

وجفلت.. كيف عرف اسمها.. ثم تذكرت هذا الوجه.. أنها رأته فى المستشفى.. وكان دائما بشوشا طلق المحيا كما هو الآن.. فى أى عنبر رأته وفى أى مكان..؟ لم تكن تدرى..

وردت "سنية" بضعف:

ـ كتر خيرك.. قربنا من الترام..

ـ اركبى من أجل الصغير.. الشمس حامية..

ونظر إليها مرة أخرى نظرة كلها حنان..

فقالت لنفسها:

ـ وماذا يضير.. وما الذى بقى لى بعد الذى جرى..؟

وركبت فى المقعد الخلفى صامتة والغلام فى حجرها..

وقال الطبيب وهو يسير بالسيارة متمهلا:

ـ ابنك.. استرد عافيته..

فهمست:

ـ ليته.. مات..

ولم يسمعها..

وقال وهو ينظر إلى الطريق دون أن يدير رأسه إلى الخلف:

ـ لقد حقنتك حقنة التيفود.. بعد أن وضعنا الصبى فى العنبر.. وكنت لا تريدين أن تشمرى عن ذراعك.. أتذكرين ما حدث..؟

وضحك.. وابتسمت..

ـ أنا جاهلة.. يا بيه.. وهذه أول حقنة فى حياتى وكيف أشمر عن ذراعى أمام رجل..؟

وتذكرت كل شىء لقد حقنها حقا.. وكان رقيقا مهذبا وإنسانا ولكنها كانت فى دوامة، ومر هذا سريعا.. مرت هذه اللمحة الإنسانية سريعا وبقى الأثر المدمر.. الذى محا كل عاطفة أخرى تأتى من إنسان..

لقد جرجروها ومزقوها بغلظتهم لأنها فقيرة.. واستغل الرجل النذل جمالها ليلطخه بالوحل.. النذل أرهبها ليوقعها فى الشرك.. نصب لها المصيدة الجبان.. النذل..

وسمعت الطبيب الشاب يسألها:

ـ ساكنة فى أى جهة..؟

وخجلت أن تقول فى الدراسة قريبا من المقابر..

وقالت:

ـ قريبا من الحسين..

ونظر إلى عينيها وكان يود أن يقول لها:

ـ أنت جميلة يا "سنية" ولم أر مثل جمالك قط فى أنثى ..وأنا سعيد بركوبك معى.. سعيد سعادة ليس لها من حدود..

وقالت بعد أن اقتربت العربة من شريط الترام:

ـ سأنزل..

ـ لا.. سأوصلك إلى بيتك..

وصمتت وكانت الدموع فى عينيها وهى تحدق فيه..

وهمست:

ـ أخيرا.. يجىء إنسان..

وسألته وهى نازلة.. تضع طرف طرحتها على جسم الصبى..

ـ ألا تريد شيئا.. يا دكتور..؟

ـ أبدا.. شكرا..

ـ أنظف لك البيت.. وأغسل ملابسك..

ـ شكرا.. تسلم يدك..

وظلت واقفة فى مكانها شاردة حتى بعد أن تحركت العربة واختفت عن نظرها..

التقيت وأنا أعبر شارع الشيخ حمزة إلى عيـادتى فى أمسـية من أمسـيات الخريف بصديقى لطفى.. وكان من رفاق الحداثة فى المدرسـة الخديوية ..ولما دخلت مدرسـة الطب كان هو قد ترك الجامعة واشتغل فى الصحافة.. وغمره تيارها وأصبحت لا أراه إلا قليلا..

وسر لما رآنى عرضا فى الطريق وسررت أنا أكثر منه ..ولكن شيئا على خديه وفى عينيه أشاع الرجفة فى قلبى..

سلم فى بشاشة وهو يقول:

لى ستة شهور وأنا عازم على زيارتك فى العيادة، وكل يوم أقول غدا.. تصور.. ولكن ما دمنـا قد التقينا الآن سأحـدد الميعاد فى هذه السـاعة ..وسأجيء فى الخامسة بعد ظهر غد..

وجاء.. وأخذ يحدثنى عن حياته وعمله.. وكيف أنه يقضى الليل كله فى المطبعة بين الحروف والرصـاص.. ومنـذ شـهور طويلة أحس بشـىء فى صدره ..ويخشـى أن يكون قد تمكن منه الداء، ولولا أنه أحب فتـاة حبـا جارفا ويفكر فى الزواج منها.. ما اهتم بالأمر، ولهذا يود أن يطمئن تماما قبل أن يشرك فتاة بريئة فى نفس المصير..

وابتسـمت.. ونفيت له الخاطر الذى دار فى ذهنه، ولكن نظرة فاحصة إلى وجهه جعلت قلبى يدق بشدة..

وقال ووجهه يضطرم:

ـ هل يمكن أن أكشف الآن؟

ـ تفضل..

وأدخلته الحجرة..التى فيـها جهاز الأشعة.. وخلـع ملابسه ووقف بصدره العارى وراء اللوحة.. وسلطت الجهاز.. ورأيت تمزقا ظاهرا فى الرئة اليمنى.. وخيـطا أسـود كضربة موسـى يبعـد عن التمزق بمقدار عشرة سنتيمترات.. واسود وجهى وتندت عيناى بالدموع.. فقد كانت الحـالة ميئوسا منها تماما ولا ينفع فيها أى علاج..

ولما خرج صاحبى من وراء الجهاز وارتدى ملابسه.. لم أشعل نور الغرفة وتركتها فى الظلام حتى أخفى تعبيرات وجهى..

ـ ماذا رأيت..؟

ـ صدرك سليم.. بل أقوى من صدر مصارع الثيران..

ـ لاشىء..؟

ـ لاشىء على الاطلاق..

فنظر إلىّ فى شـك.. ولكـن الفرحة هزته وأجرت الدم فى خديه..

ـ أتزوج إذن..؟

ـ توكل على الله.. هل حددت ميعاد الزواج..؟

ـ بعد خمسة شهور..

وقدرت حياته الباقية بثلاثة شهور على أوسع مدى.. وقدرت للفتاة النجاة.. وسألته:

ـ والعروس قريبتك..؟

ـ لا.. إنها من المنصورة.. وأنا لا أراها إلا مرتين فى الشهر.. ولهذا أتعجل الزواج..

واسترحت لأنها لاتعيش فى القاهرة معه.. وأسفت على شبابه وصحته..

وكنت أحادثه وأنا أكتم انفجار الألم فى نفسى.. وأضغط على مخارج الحروف حتى لا أبدو ضعيفا أمامه..

وعندما بارحنى مسرورا بنتيجة الفحص كنت غارقا فى دوامة من الأسى..

وفكرت فى أن أتصل به بعد ذلك بأيام.. وأقول الحقيقة بطريقـــة مخففة.. أو أعرف عنوان الفتاة وأبعث لها برسالة..

ولكننى وجدت أن فى إخباره قسوة بشعة وتعذيبا لإنسان سيموت حتما.. وفى الاتصال بالفتاة قسوة مثلها..

وظللت أتعذب وأنا غير مستريح إلى كذبتى.. وكنت كلما دخلت على فتاة مريضة فى العيادة تصورتها خطيبة صاحبى.. وأنها جاءت تحمل إلىّ اللعنة والعذاب.. ومر عام وأكثر.. ونسيت الحادث ونسيت صاحبى فى غمرة الحياة..

* * *

ثم التقيت به عرضا منذ اسبوع وأنا داخل إلى استراحة " شل " على الطريق الصحراوى وكان على حالة من الصحة.. والعافية أدهشتنى.. ولما جلسنا.. نشرب القهوة فى الاستراحة وجدت نفسى أوجه إليه هذا السؤال وأنا لا أشعر:

ـ ألم تسافر إلى سويسرا فى العام الماضى..؟

ـ سويسرا لماذا.. اننى لم أبرح مصر قط..

ـ خيل إلىّ أننى رأيت شخصا يشبهك فى "بادن"

ـ إننى مشغول بعملى ولا أستطيع السفر إلى الخارج..

وكنت أود أن أسأله:

ـ ألم تدخل مصحة..؟

ولكننى "بلعت" هذا السؤال.. وأنا أنظر إلى سيدة رائعة الحسن تقبل علينا فى رشاقة حلوة.. وأدركت بعد أن قدمنى إليها.. ونظرت إلى عينيها ووجهها.. سر نجاته من ذلك الداء..

فقد كانت "سميحة" زوجته تبتسم له ابتسامة مشرقة فيها الأمل والحياة..

# رسالة من الميدان

**بقلم محمود البدوي**

جلست فى القطار السريع العائد من فلسطين ، مرسلا البصر عبر النافذة إلى الصحراء والتلال والكثبان الرملية التى لايحدها النظر..

وكنت قد خرجت لتوى من المستشفى العسكرى بعد إصابة بالغة فى جبهة القتال .. ومنحت إجازة طويلة أسترد خلالها عافيتى.

وجلست منفردا منزويا فى ركن من العربة ، بعيدا عمن حولى من الركاب دائرا حول نفسى كالقوقعة..

وكنت أحمل رسالة عزيزة وضعتها فى جيب سترتى ، رسالة من صديقى الضابط الشهيد محى الدين .. الذى كان يحارب معى فى نفس الجبهة .. وكان قد كتبها لوالدته قبل أن يخوض المعركة .. يستودعها ابنه الصغير وزوجته التى لم تستمتع بعد بالحياة .. وكان يتوقع الموت .. فقد كنا نحارب عدوا جلب أحدث الأسلحة وأشدها فتكا بذخيرة فاسدة .. ومع ذلك كنا نقاتل قتال الأبطال.

وكانت صورة المعارك الدامية قد طافت بذهنى وأنا أنظر عبر السهول الفسيحة الممتدة إلى ما لا نهاية .. والقطار ينهب الأرض نهبا.. وكنا فى يوليو والجو خانقا .. والركاب المدنيون الجالسون معى فى نفس الديوان .. يلعنون مصلحة السكك الحديدية لأنها رفعت المراوح الكهربائية التى فى القطار .. ويسبون كل شىء .. وكنت أسخر من هذه الرفاهية .. فلم أكن أحس بشىء ذا بال .. فقد تعودنا على الخشونة بكل ضروبها .. فلم يكن يرهقنى أن لا أجد مروحة فى عربة .. وكنت أسخر من هؤلاء الركاب .. وأغتاظ من تفاهة تفكيرهم .. وزادنى غيظا أن بعضهم لم يكن يحس بشىء مما نحن فيه من هول .. لم يكن يدرى أن هناك حربا فى فلسطين دائرة على أشدها..

وعندما خرجت من نطاق المحطة وهبطت إلى المدينة .. مدينة القاهرة فى الليل .. رأيت الأنوار والأضواء .. والملاهى والمواخير .. والمراقص الدائرة ، وازداد حنقى فقد كنا نقاتل فى جبهتين منفصلتين بكليتنا عن الوطن الذى ندافع عنه.

***

ونمت فى بيتى إلى الصباح .. وكنت أحمل فى حقيبتى ساعة محيى الدين الذهبية ومحفظته .. وحجابا صغيرا صنعته له أمه قبل سفره إلى الجبهة .. وقلما من الأبنوس ومفكرته الصغيرة .. وهى كل الأشياء العزيزة التى تخصه .. والتى أفرغتها من جيوبه قبل أن يحمله الجنود على نقالة إلى المستشفى الميدانى .. فأخرجت هذه الأشياء ووضعتها فى حقيبة صغيرة واتجهت إلى بيت صاحبى فى ضاحية القبة.

وصعدت سلالم المنزل الصغير الأنيق وقلبى يعصره الألم..

وجلست فى غرفة الصالون وحيدا .. بعد أن فتحت لى الخادم الباب .. وسمعت وأنا جالس صوت الراديو يردد بعض الأغانى الشائعة .. ما هذا .. أيجهلون كل شىء ؟.. !

ودخلت علىّ السيدة والدة محيى الدين بردائها الأسمر السابغ ، وكانت تعرفنى .. فلما رأتنى ظهر على وجهها البشر

وقالت : ـ انت يا بنى .. وازى محيى ..؟

ولم أقل شيئا .. واستمرت هى ترحب بى مسرورة .. وأدركت بعد دقيقة واحدة من مجلسى معها أنها تجهل أن ولدها مات .. وكانت متلهفة على سماع أخباره .. وأسقط فى يدى .. كيف أحدثها بخبره .. ولو حدثتها وهى فى غمرة نشوتها لقتلتها من هول الصدمة .. فكتمت الخبر .. وأخذت أروى لها مختلف الأحاديث عنه. .

وسألتنى : ـ ومتى سيأتى ..؟ قلت : ـ بعد شهرين..

وذاب قلبى حسرات .. وتذكرت كل ما كنت أحمله فى جيوبى من هدايا لأسرتى .. وأخرجتها وقدمتها لوالدة محى الدين على أنها مرسلة من ابنها .. لها ولزوجته..

وجرت بالهدايا إلى الزوجة فى الداخل ، وهى تصيح ، بصوت طروب : ـ شوفى يا اعتدال .. إيه اللى باعتولك جوزك..

وسمعت صوتا رقيقا ناعما يقول من فرجة الباب : ـ مرسى .. مرسى خالص..

وأخذت أنظر إلى هؤلاء الناس المتلهفين على أخباره ، والمتوقعين قدومه فى كل لحظة ، الذين يتصورون كل شىء إلا أنه مات وراقد هناك تحت الثرى .. ومرت فى خيالى صور .. وذكريات..

وعندما ودعت الوالدة .. وحملت ابن محى الدين وقبلته وهبطت سلم البيت .. وخرجت إلى الشارع .. كن واقفات فى الشرفة لوداعى.

***

ولم تبرح صورة محى الدين وصورة أسرته ذهنى بعد ذلك أبدا .. كانت تشغل تفكيرى كله .. وقررت أن أفعل شيئا سريعا حاسما لأريح أعصابى .. قررت أن أعود إلى جبهة القتال لأنتقم له ..

وعدت إلى فلسطين .. واشتركت فى المعركة الكبرى .. وقتلت كثيرا من اليهود .. وشعرت بنشوة النصر ولذة الانتقام .. وفى حمى المعركة أصبت بشظية فغبت عن الوجود وحملت وأنا فى الغيبوبة إلى المستشفى..

***

وعندما فتحت عينى وعدت إلى رشدى ، وجدت نفسى فى مستشفى الحلمية العسكرى .. وبجوارى تقف سيدة شابة فى لباس الممرضات .. وكان وجهها كالبدر ، ونظرت اليها طويلا وعرفتها .. كانت زوجة محيى الدين..

***

اننى أعيش الآن فى منزل محيى الدين .. مع والدته الكريمة ، وابنه الصغير ، وزوجته التى أصبحت زوجتى ، وعزيزة على منذ تلك اللحظة الخالدة فى تاريخ الإنسان ، وأشعر أنهم لم يفقدوا شيئا .. كما أشعر أننى أديت الرسالة التى حملتها معى من الميدان.

خرجنا فى الهزيع الأخير من الليل نزحف نحو المزرعة كالذئاب الجائعة ، ومع أننا كنا مسلحين بأحسن طراز من البنادق ، فقد كنا نتجنب الحراس ونراوغ كالثعالب ، لأننا نعرف قيمة الدم المهدور فى الصعيد ، ولهذا كنا نتخير الأوقات التى تقفل فيها العيون وتغفو.

كان الظلام على أشده فى تلك الليلة ، وكانت وجهتنا مزرعة عثمان بك ، وهو من الأثرياء الأشحاء .. كان جبارا شديد البطش مرهوب الجانب ، وكانت مزرعته متطرفة عن سائر المزارع ، وعليها أشد الحراس ساعدا وأبرعهم رماية .. ولكنا كنا لانخاف أحدا ولا نرهب انسانا .. كنا من الفتاك الذين يبطشون فى الأرض ، ويعيثون فيها فسادا ، لايردعنا حلم ، ولا يردنا عقل ، ولا يزجرنا زاجر .. كنا نحمل الحقد والضغينة على المجتمع الإنسانى ، الذى طردنا من كنفه ، وشردنا فى الأرض ، وقطع بنا الأسباب..

وكانت قسوتنا ، وغلظ أكبادنا ، على قدر ما أصابنا فى مستهل حياتنا ، من ضنك العيش وشظفه ، وبلاء الأيام ومحنتها .. فكانت الفرائص ترتعد لذكرنا ، والقلوب تنخلع لوقع أقدامنا .. وكنا قد ضربنا بكل شىء عرض الأفق ، وعشنا على السرقة والنهب ، نقطع الطريق على الناس ، ونسطو على المزارع فى غلس الليل وفحمته .. وكنا نشعر بعد كل حادثة بلذة المغامرة التى لاحد لها..

كانت حظائر الماشية فى شرق المزرعة ، وحظائر الغنم ، وهى مبتغانا وقصدنا ، على رأس الطريق المؤدى إلى الحقول ، وكان حول الغنم سياج يبلغ رأس الرجل .. وله بابان أحدهما يؤدى إلى الطريق الصغير الممتد إلى باقى الحظائر ، والآخر يفضى إلى الحقول.

وكنا قد درنا حول المزرعة فى الليالى السابقة ، وعرفنا كل شىء فيها ، ورأينا أن خير ما نفعله لنتقى كلابها ، هو أن نرسل واحدا منا يناوش كلاب مزرعة مجاورة ، فتخرج إليها كلاب المزرعة التى نقصدها .. وفى تلك الساعة نتقدم نحو الحظيرة ، ونخرج بالغنم إلى بطن الوادى ثم نتجه بها فى طريق غير مألوفة إلى الشرق ، وبذلك ننجو بها..

وتم كل شىء بمنتهى السرعة .. فبعد دقائق قليلة كنا نسوق الغنم .. وتحولنا بها إلى بطن الوادى ، وأخذت عصينا تعمل فوق ظهورها بحمية .. وكنا نسير خلفها وواحد منا فى مقدمتها ، ونحن صامتون ، وصوت الكلاب فى المزرعة المجاورة يقطع علينا هذا السكون العميق ، ثم فتر نباح الكلاب بالتدريج وانقطع صوتها .. وسكن كل شىء ، وخمد كل حس ، وساورنا الاطمئنان المطلق..

وتنفسنا الصعداء ونحن نجتاز بالغنم الوادى ، وندور بها حول التل ، والسكون يخيم والصمت شديد ، وصوت الأمواج المتكسرة على شاطىء النيل يصل إلى آذاننا عن بعد كأنه زمجرة الوحوش فى الأجم ، ونيران الفلاحين فى المزارع البعيدة تبدو فى غياهب الليل كألسنة الجحيم..

ودرنا حول الغنم ونحن نحثها على الاسراع ، وقد ساورنا شعور من اقترب من الهدف فاندفع بأقصى قوته ليستريح فى النهاية..

وسمعنا فجأة صوت رصاصة مرقت فى الجو .. فحبسنا أنفاسنا ، وصوبنا أبصارنا إلى حيث انطلقت الطلقة .. وقد أخذنا أهبتنا للأمر .. وكانت الكلاب قد عادت تنبح ، ثم انقطع نباحها شيئا فشيئا .. فتصورنا الطلقة من أحد الفلاحين الذين يبيتون فى المزارع ، ويطلقون النار على غير هدى ، فى أخريات الليل ليرهبوا اللصوص .. وعاد إلينا الاطمئنان واستأنفنا السير .. وإذا بنا نسمع طلقات متصلة اهتز لها الجو وزأر وهاجت الكلاب وتفزعت كأنها فى شجار مستعر..

استدرنا وانبطحنا على وجوهنا وتركنا الغنم مع واحد منا يسوقها بأقصى سرعتها .. وأخذ الرصاص يدمدم ويصوب إلى اتجاهنا..

لقد تقفوا أثرنا وعرفوا طريقنا ولم يكن من القتال بد.. وزحفنا كما تزحف السلاحف إلى مشرف عال بجانب الطريق .. وأخذنا نرد على طلقات الحراس بطلقات أشد منها..

وانقلب الجو إلى معركة حامية .. واشتدت علينا المطاردة وكثر طلق النار .. وكأنما خرجت إلينا المزارع بجميع حراسها وأحسسنا بدقة موقفنا .. وأدركنا أننا لو بقينا فى مكاننا فنحن هالكون لامحالة ، فتراجعنا إلى مكان آخر .. ورأينا أن نسرح الغنم ليكف عنا الحراس .. وعهد الرفاق إلىّ وإلى زميلى حسان بهذه المهمة .. فأخذنا نغير اتجاه الغنم ونردها على أعقابها .. وبعد دقائق قليلة كنا ندفع الغنم من حيث جاءت والرصاص يصفر فوق رأسينا .. ورميت رفيقى بحصاة .. ونهضنا معا وجرينا بكل ما وسعنا من السرعة .. وسمعت أنة مفزعة وسقط جسم رفيقى على الأرض ، فأسرعت نحوه وحملته .. وبعد لحظات جاء الرفاق .. وحملناه .. وسرنا به مسرعين قبل أن يفضحنا نور الفجر..

انقطع صوت النار وخف نباح الكلاب ثم سكن وخيم السكون العميق .. وبلغنا بصاحبنا التل .. وكان قد فارق الروح فى الطريق بعد أن تألم كثيرا .. ووضعناه فى الزورق ، وأعملنا الأيدى فى المجاديف ، واتجهنا نحو الغرب ، وقد خيم علينا الصمت..

ما أعجب الحياة!

لقد انتهت حياة رفيق لنا فى مثل خطف البرق ، وما ذرف أحد منا دمعة ! فقد قست قلوبنا وتحجرت مآقينا .. وهل هو القتيل الأول ؟ .. أبدا .. ولن يكون الأخير .. وسيأتى دورنا ما من ذلك بد..

وتبادلنا المجاديف ، والرفيق الذى كان يضاحكنا فى المساء ويمازحنا قد رقد هناك فى ركن من الزورق ، صامتا أخرس ..لقد كان صمته أبلغ من نطقنا .. ولقد أطبق فمه وهو فى بكائر أيامه وربيع عمره ، وضرب الضربة البكر ، وهو فى أول عهده بالحياة .. قضى .. لأنه كان أكثرنا حماسة .. وأشدنا بطشا ، ولقد انتهت تلك القوة الجبارة فى ساعة قصيرة مفجعة ، وكنا جميعا نتوقع الموت فى كل ليلة نخرج فيها للسرقة إلا هو ، فقد كان الموت أبعد شىء عن ذهنه .. ولعل الشباب والجبروت وقوة الحيوية هى التى جعلته هكذا .. ولكن ما أعجب الأقدار ! لقد اختطفته هو ، وخلفتنا نحن .. إلى حين. !

وانحنيت على جسمه أتأمل روعة الموت فى ذلك الوجه الناضر .. فإذا بوجهه قد احتقن وتصلب واغبر ، وبرزت عيناه فى رعب ، وسقط فكه الأسفل ، فعل من عانى أشد برحاء الألم .. وأغمضت عينيه ، وقد أذهلنا الموقف المروع عن فعل ذلك من قبل.

وأخرجناه من الزورق وحمله اثنان منا ، وسار الباقون خلفهما فى صمت كئيب .. وبدا الجبل رهيبا موحشا ، شامخا جبارا .. وسيضم جبارا مثله .. أخذنا نتبادل حمله ، وقد ثقل جسمه وتصلب .. وعلى الرغم من أننا ربطنا الجرح ، كان الدم لايزال يتفصد ، وكانت أرجلنا تغوص فى الرمال ، وعرقنا يختلط بدم القتيل ، ويسيل على وجوهنا وثيابنا .. يا لله .. أى حياة يحياها الأشقياء فى القرية.

تطلعنا إلى الأفق الشرقى وقد بدى بياض الفجر يزحف .. وكنا قد قربنا من المقبرة ، وثار الغبار الدقيق فى وجوهنا وملأ خياشيمنا ، وأخذ الصمت الرهيب يطالعنا من كل جانب ، وكنا نتبادل من قبل بضع كلمات ، ولكن ما لاح شبح المقابر عن بعد ، وهى رابضة عند سفح الجبل ، حتى تملكنا شعور من الرهبة ، ومزيج من الخوف والابتئاس .. فتصبب العرق على وجوهنا .. وأصبح كل شىء حولنا كريها بغيضا .. فأحسسنا فى أعماقنا بشعور من أشرف على الهاوية ، ووقف على رأس الجب وعيناه إلى تنين هائل!..

لقد كان عذابنا لاحد له ، وقلقنا لايصور ، وشعورنا بالبغضاء يفوق كل وصف .. كنا نود لو نلقى بصاحبنا فى اليم ، ونجعله طعمة الأسماك ، أو نطرحه فى العراء ، لتنقض عليه صقور الجو ، وجوارح الطير .. وأسفنا على كل ما تحملناه فى سبيله حتى بلغنا به الجبل ، حيث المقابر..

لقد أثارت هذه المسافة الطويلة التى حملناه فيها كل ما يمكن أن يحمله إنسان لإنسان من حقد وكراهية .. فلو اعترضنا فى تلك الساعة الرهيبة معترض لمزقناه إربا..

كنا نسير فى طريق المقبرة ذاهلين مشدوهين ، وكأننا نحمل جبلا على أعناقنا .. كان شقاؤنا مرا وعذابنا غليظا .. وكان الحسك والشوك وشجر الصبار ينبت على جانبى الطريق .. وكنا ندوسه بأقدامنا ونحن لانحس به من فرط الذهول..

لقد مرت علىّ فى تلك الساعة الرهيبة صور حياتى من الوقت الذى شببت فيه عن الطوق إلى أن أصبحت من الفتاك الآثمين .. وضمنى هؤلاء الرفقاء إلى زمرتهم .. وسرنا جميعا فى طريق الظلام .. هل كنا سنصبح هكذا ونعيش على هذا النحو لو أنيرت أمامنا السبل ، ورفعت المشاعل وتبينا السبيل ؟ أبدا .. لقد كنا أشد ما نكون حماسة وفتوة ونضارة ، فانتقلنا من الروض إلى بيداء التيه ، بعد أن ضاقت بنا السبل ، ودفعنا المجتمع إلى ركوب هذا الطريق .. فيجب أن نمضى إلى النهاية..

إن أحدا من الناس لم يفكر فى الساعة الفاصلة فى تاريخ الإنسان .. الساعة الفاصلة فى تاريخ الرجل ، التى قد يكون بعدها ملاكا رحيما أو شيطانا رجيما .. لقد مرت بنا تلك المحنة القاسية كما لم تمر على مخلوق بشرى ، وكنا نتعذب ونقاسى من البرد والجوع والشقاء ، ونحمل من الأعباء ما تنوء بحمله الجبال .. كنا نعمل ونحن صغار فى الحقول ، فلا نحصل فى آخر النهار حتى على ما يمسك الحوباء ، كنا نرتعش من البرد فى ليالى الشتاء ، ونتألم من الجوع .. ولم يكن عملنا منتظما ، بل كنا نعمل يوما ونتبطل خمسة .. وكان كل شىء يعمل على عذابنا وشقائنا ، فلم يكن بد من هذه الطريق!

ولم نكن نشعر فى أول الأمر ، بعد كل حادثة سطو بشعور الرجل الراضى عن عمله وفعله ، بل كنا فى ساعات كثيرة نشعر بالندم ، وعذاب القلق ، إذا ما اسفرت الليلة عن محنة وبانت عن قتيل .. ثم مضت الأيام وجرفنا التيار إلى نهاية المنحدر ، فغلظت قلوبنا .. وماتت ضمائرنا .. وغدونا أشد ضراوة من الوحوش..

كان النور قد شعشع على الكون ، وبدت المقابر المتناثرة على سفح الجبل .. وحلقت الغربان فى الجو .. وتطلعنا إلى قرن الجبل ، ولمحنا عن بعد ذئابا تنحدر عن قمته ، وخيل إلينا أنها ترقبنا عن بعد .. ما أشبهنا بهذه الذئاب .. إنها تسعى الآن لتأكل إنسانا أو حيوانا ، فإذا لم تجد أكلت نفسها..

رمقنا هذه الذئاب بعيون تتقد غيظا وحنقا .. وكانت تنظر إلينا بمثل نظرتنا .. وتنحدر عن التل لتأخذ علينا الطريق.

بحثنا عن فأس لنحفر لرفيقنا حفرة .. فلم نجد .. وأخذنا نعمل فى التراب بأيدينا وأطراف بنادقنا ، حتى حفرنا له حفرة ، وواريناه .. ونفضنا عن أيدينا الغبار .. وكانت الذئاب لاتزال تنحدر عن التل ، وتتجه نحونا ، أو تتجه نحو المقبرة الجديدة!

وكانت ترقبنا بعيون جائعة!

ذات ليلة من ليالى السبت كنت أسير وحدى فى شارع جنزا .. ذلك الشارع المتألق بمدينة طوكيو دون وجهة معينة .. ودون رغبة.

وأخذت أستعرض واجهات المحلات التجارية بأنوارها الزاهية .. وأرقب المارة فى زيهم المختلف الأشكال وفى أناقتهم البالغة.

وكان منظر النساء فى لباس الكومينو يستهوى النفس ويأخذ بمجامع القلب . ورأيت فتاة يابانية فى زى أوروبى تقف على ناصية تحت مصباح أزرق وقفة رائعة ونظرها يتجه إلى بالون كبير مضىء يدور فوق إحدى السطوح ! ورأيت شابا على بعد امتار منها يلتقط لها صورة.

فوقفت أتأملها .. كانت الفتاة رائعة الحسن حقا ومن نوع جديد شديد الإثارة . لم تكن تسرف فى زينتها ككل اليابانيات .. بل كانت متأنقة فى جمال طبيعى وفتنة فى العينين الذابلتين وفى الشعر الأسود الشديد اللمعان وكانت تسريحتها يابانية جميلة ووجهها أبيض نضيرا..

وكانت ترتدى جونلة وصديرا من الصوف البنى .. ينسجم انسجاما رائعا على جسمها الرشيق .. ووقفت أتأملها والمصور يلتقط لها الصورة ثم حركت قدميها الصغيرتين ومضت فى الشارع وحمل المصور آلته ومضى وراءها..

ولما خرجت من هذا الشارع الكبير إلى الشوارع الجانبية الضيقة المتألقة فى الليل الحالم .. رأيت هذه الفتاة تقف نفس الوقفة للتصوير.

ثم رأيتها مرة ثالثة فى مكان آخر ، ولما وقفت أرقبها هذه المرة رمقتنى وابتسمت كانت تتصور أننى أتبعها عامدا .. مع أن لقاءنا فى كل هذه المرات.. كان من قبيل المصادفة البحتة وتركتها فى زحمة الناس وأنا مأخوذ بسحر جمالها .. ومضيت أتجول فى المدينة الضخمة حتى أحسست بالتعب وجذبتنى قهوة صغيرة على الطريق فدخلتها لأستريح وسرنى الهدوء الذى لمسته فيها والموسيقى الخفيفة التى تنبعث من الجرامافون . وكان سقفها وأرضها وسلمها الداخلى من الخشب المزخرف المطعم . وعلى الحوائط رسومات زيتية رائعة.

وكانت القهوة من طابقين والموائد صغيرة وأنيقة والكراسى طويلة ومكسية بالقطيفة وأصص الزهور فى كل ركن وكان فيها سبع بنات حسان يقمن بالخدمة..

وانحنت أمامى حسناء تسألنى فى أدب ورقة عما أطلب .. ولقد عرفتها فى الحال كانت هى الفتاة التى شاهدتها منذ ساعة تتصور فى الطريق..

وقلت لها وأنا أنظر إلى السواد المتألق فى عينيها .. ــ زجاجة صغيرة من البيرة .. ــ لا يوجد هنا بيرة .. ــ لا توجد بيرة .. ؟ ــ إطلاقا .. إنه مقهى كما ترى فيه قهوة وشاى .. وعصير فواكه ويمكن أن تطلب وجبة خفيفة .. ــ إذن سأشرب قهوة .. ــ حالا..

واستدارت نصف دورة بين الكراسى والموائد .. ثم هبطت سلما خشبيا صغيرا وأخذت أعد ضربات أقدامها على الخشب وعادت بعد قليل تضع أمامى طبقا فيه فوطة بيضاء مبلولة .. يتصاعد منها البخار.

وكنت أعرف أن هذه الفوطة تقدم دائما فى طوكيو قبل الطعام والشراب وحتى عند الحلاق!

فقلت للفتاة مداعبا .. ــ إن حى جنزا كالبلور .. فمن أين يأتينى العرق والتراب . ــ ستشعر على أى حال بالراحة بعد مسح وجهك!

ولقد شعرت بالراحة فعلا منذ وضعت قدمى فى هذا المكان .. فجوه الشعرى الحالم .. يرخى الأعصاب .. ويهز المشاعر وكان هناك ثمانية من الرواد .. جلسوا فى هدوء وصمت .. والشىء المتحرك فى المكان .. كان شابا يابانيا ينهض كل دقيقة إلى التليفون .. ثم يعود إلى مائدته ، وكلما وضع السماعة كان يتحدث مع صاحبة القهوة وكانت جالسة على « البنك » تبتسم له

وتحيى الداخلين والخارجين بابتسامة أيضا .. وانحناءة من رأسها .. وكانت هناك فتاة واقفة وراء الباب تفتحه للداخلين وهى تحييهم تحية الاستقبال..

وجاءت فتاتى تتهادى وتحمل القهوة .. وكان ثمن الفنجان 60 ينا..

فأعطيتها قطعة بمائة ين .. ولما ردت الباقى قلت لها إنه بقشيش..

وقالت برقة وقد أحمر خداها .. ــ إننا لا نأخذ بقشيشا .. ؟ ــ لماذا ؟ ــ هذه تقاليد القهوة..

وكانت صاحبة المحل ترقبنا بابتسامة فطويت الباقى فى جيبى..

ولاحظت أن الفتيات الأخريات يحادثن الرواد ما دام ليس لديهن عمل..

فقلت لفتاتى .. ــ لقد شاهدتك تتصورين هناك .. ــ وأنا رأيتك أيضا .. ــ هل كانت الصورة .. كتذكار ؟ .. ــ أبدا .. إن المصور يبيعها لمجلات أميركية .. فوج .. ولوك..

ـ وكم تأخذين على الصورة .. ؟ ـ خمسمائة ين .. ــ خمسمائة ين ؟ ( ٥٠ قرشا ) إنه يبيعها بمئات الجنيهات ! ــ إن العملية .. لم تستغرق أكثر من نصف ساعة .. والخمسمائة ين لا بأس بها لفتاة مثلى..

ونظرت إلى وجهها الضاحك .. وكنت أود أن أقول لها إنها تساوى كل ما فى الأرض من ذهب..

وسألتنى .. ــ هل تحب أن تسمع موسيقى شرقية ؟ ــ يسرنى هذا .. وأذاعت بعض الموسيقى الهندية.

وسألتها .. ــ إلى متى يبقى المقهى مفتوحا ؟ ــ حتى الحادية عشرة .. ــ وبعد ذلك ؟ ــ نذهب لننام..

وضحكت .. ــ وإذا ذهبنا إلى السينما أو المسرح .. ــ لا يوجد مسارح فى طوكيو فى مثل هذه الساعة .. والسينما .. ماذا يبقى على الفيلم ؟ ــ تكفينى نصف ساعة .. الغرض أن نتنزه معا .. ــ تعال غدا .. وسأتفق مع إحدى زميلاتى .. ونخرج من الساعة التاسعة.. ــ فى الساعة التاسعة غدا سأكون فى المطار .. ــ حقا .. راحل عنا سريعا .. ــ بكل أسف .. يضطرنى عملى لهذا .. وأرجو أن تحققى رغبة شخص غريب يحب اليابان . ــ ما هى رغبته ؟ ــ أن نتجول ساعة فى حى جنزا..

وفكرت قليلا .. وهزت شعرها .. ودفعت سوالفها بيديها .. ثم قالت بنعومة .. ــ انتظرنى على ناصية الشارع .. وسآتى بعد دقائق .. وشكرتها بقلب حار .. وخرجت من المقهى .. وأنا أطير من الفرح..

***

وانتظرتها وجاءت .. وأخذنا نتجول فى المدينة الحالمة .. ونرى الفوانيس من كل الألوان على واجهات البيوت .. والبالونات .. تضيئ بالألوان الزاهية..

وكانت السماء تمطر رذاذا ، وشىء خفيف كهزة الزلزال .. ترج المنازل..

وأمسكت بيديها .. ولم يكن هناك شىء فى الوجود يمكن أن يفصلنى عنها فى مثل هذه الساعة.

كنت لا أعرف اسمها .. وكانت لا تعرف اسمى .. ولكنا شعرنا بعاطفة قوية جمعتنا معا..

وكنت أسمع دقات قلبى كأنها تناديها .. لتقترب منى أكثر وأكثر فى كل خطوة..

ومشينا على مهل نتمتع بالجمال .. ثم دخلنا مرقصا من المراقص التى تسهر إلى الصباح لنجد وقتا طويلا نقضيه معا..

وجلسنا متجاورين نتحدث ومن عجب أننى لم ألتفت إلى الرقص وكان المرقص يضم أشهر الراقصات فى طوكيو..

وسألتنى .. بعد أن خرجنا .. ــ هل أعجبك الرقص ؟ ــ إننى لم أشاهد شيئا .. ــ لماذا ؟ ــ إن حواسى كلها كانت متجهة إليك .. ــ إلى هذا الحد أنت معجب بى ؟ ــ اسمعى دقات قلبى .. فضحكت

وقلت لها وأنا أضغط على يدها .. ــ هل يمكن أن نختم هذه الجولة .. بفنجان من الشاى فى الفندق . ــ كما تحب .. ولكن لا تؤخرنى كثيرا عن بيتى..

وأحسسنا بالجوع .. فأكلنا لحما مشويا على النار .. ونحن وقوف فى مطعم شعبى قرب محطة شمباسى..

واشترينا أربع تفاحات كبيرة لنأكلها فى الفندق..

ولما وصلنا باب الفندق الدوار لم نجلس فى البهو بل وجدت نفسى .. أسير بها إلى المصعد .. ومشت بجوارى صامتة..

ودخلنا غرفتى .. وجلست محمرة الوجه .. ساكنة .. وسألتها .. ــ هل نطلب شايا ؟ ــ يكفى أن نأكل التفاح..

وتناول كل منا تفاحة .. وأخذنا نأكل ونضحك..

وخلعت بلوزتها .. وجلست بجوارى .. فكنت آخذ قضمة من التفاحة وأقبل فمها .. وكانت حلاوة فمها أحلى من التفاحة.

***

ولم يكن فى غرفتى الصغيرة مرآة .. فذهبت إلى الحمام لتتزين وعادت كالعروس .. فوجدتنى ألقى بالتفاحة الأخيرة والباقية منها فى سلة المهملات وكنت قد أخذت منها قضمة .. ــ ولماذا تلقيها فى السلة ؟ ــ شبعت .. ــ ولكنها خسارة..

ووضعت يدها فى السلة وأخرجتها ولفتها فى ورقة .. ــ لماذا فعلت هذا ؟ .. ــ سأخذها لوالدتى .. إنها لم تذقه قط!

وكأنما لسعنى سوط .. فمزق لحمى .. وانتفضت .. وذابت كل عواطفى الجياشة فى تيه من المشاعر المتضاربة.

وأخذت أسائل نفسى .. هل والدتها فى حاجة إلى تفاحة معطوبة .. اشتريناها بأربعة قروش وهل هى فى حاجة إلى مثل هذا المبلغ وأقل منه لتأكل التفاح .. أى بؤس وأى حياة تاعسة تعيشها هذه المسكينة وأمها .. وأنا لا أدرى ولا أفكر إلا فى رغبات حواسى ونزواتى..

وكانت الفتاة فى قميص النوم فى هذه اللحظة وقد تهيأت للفراش ولم تفهم ما دار فى رأسى ونظرت إليها كشىء ذليل يمزقه الفقر ويمنحنى نفسه .. عن حاجة وليس عن رغبة .. وليس عن حب..

واستراحت على الفراش .. فأمسكت بيديها..

وسألتنى بصوت خافت .. ــ ألا تخلع سترتك ؟ ــ أبدا .. ــ لماذا .. ؟ ــ لأننى سأرافقك إلى بيتك .. فى الحال وسأشترى لوالدتك صندوقا من التفاح..

وفاضت عبراتها .. فأمسكت بيدها .. وضغطت على يدى وشعرت بالحرارة الإنسانية لأول مرة .. الحرارة الخالصة للنفس البشرية .. الحرارة المتدفقة من أعماق القلب..

# قصة الخفير

**بقلم محمود البدوي**

كانت المحطة تقع بجانب بستان الشيخ " عرفان " أكبر البساتين فى المنطقة على الاطلاق .. وفى مواجهتها ترعة الإبراهيمية وفى الشرق والجنوب تمتد المزارع وأشجار الجميز والسنط وعلى امتداد البصر تبدو حقول القمح المحصودة .. والذرة المزروعة حديثا .. والأرض الجرداء الملاصقة للجبل الغربى..

ويبدو من هنا وهناك شريط ضيق بين المزارع ينحدر حتى مجرى النيل ويلتف ويدور صاعدا حتى المحطة..

وكانت المنطقة آمنة .. فقد تحول الناس بكل طاقاتهم إلى العمل والكفاح فى سبيل الرزق ونسوا حياة الفراغ والجهالة فيما سلف من الأيام..

وكانت المحطة مع صغرها معروفة وكثيرة الحركة لأنها المتنفس الحديدى الوحيد لعدة قرى متقاربة فى الصعيد..

وكانت مشهورة أكثر من أى شىء بخفيرها " سليمان " وهو شيخ متوسط الطول حاد البصر..

كان له فى شبابه تاريخ حافل بالتصدى لرجال الليل وقطاع الطرق ، فلما طعن فى السن وترك المزارع والوابورات إلى المحطات .. عاش من وقتها على صيته القديم فلم يطلق رصاصة واحدة طوال حياته فى السكة الحديد..

وكان يؤدى عمله اليومى بأمانة عديمة النظير .. فيحب المحطة وناظرها وعمالها ودخان قاطراتها وكل ما فيها من جماد كأن كل هذه الأشياء قطعة من جسمه..

وتحرك كعادته كل صباح على الرصيف يرقب عربات البضاعة والعمال يحملونها بالأكياس .. وهم يثرثرون ويغنون .. ولاحظ حركة السيمافور المفتوح على خط القاهرة .. لمرور الاكسبريس .. فجلس على كتلة من الخشب ينتظر مروره .. طاويا البندقية بين رجليه .. وأشعل سيجاره وأرسل عينيه السوداوين إلى ما وراء الترعة .. وكانت الشمس قد ارتفعت وضوؤها يبهر الأبصار .. وغمرت صفرتها المحطة وكل ما يحيط بها فبدت المزارع والمياه والبساتين وحتى الرمال التى تبدو من بعيد فى الجبل ، مكتسية بلون الأرجوان..

وأخذت الريح تهب لينة مداعبة اوراق الشجر .. وصفحة المياه وأعشاش الطيور .. وبدت السيارات الكبيرة المحملة بالبضائع والركاب تثير الغبار على الجسر..

وفاض سيل الحياة المتدفق فى دائرة قطرها ثلاثة أميال على الأقل فدارت وابورات الطحين والسواقى والطنابير .. وأخذ الفلاحون يعزقون الأرض ويفلحونها .. ويسوقون المواشى إلى مرابطها فى أطراف الحقول..

ولاحت أشرعة المراكب من بعيد فى وهج الشمس وهى تتحرك ببطء فى النيل فقد كانت الريح لينة والقلوع لاتشيل..

وقبل أن يمر قطار الاكسبريس .. سمع الناظر رنين جرس التليفون .. فدخل المكتب .. وقبل أن يرد عليه قطع ورقة من النتيجة نسى أن يقطعها الفراش وهو ينظف المكتب .. فظهر يوم ٥ يونيو .. بخط كبير وجلس يتلقى من محطة المنيا محادثات هامة عن تحرك القطارات وشغل فى مكتبه عما يدور فى الخارج .. وظل العمال ومن فى المحطة فى عملهم الصباحى المألوف..

وأزت فجأة طائرات فى الجو .. ثلاث طائرات صغيرة كالنسور مرت فى سماء المحطة وهى منطلقة بأقصى سرعتها .. وتطلع إليها العمال .. وأوقف الفلاحون حركة المذارى فى أجران القمح .. وحولوا وجوههم عنها فقد أخذ الهواء يعصف ويدوم ويطير التبن فى عيونهم من فعل الضغط..

وحدق "سليمان" الخفير .. فيها طويلا حتى غابت عن بصره واحتوتها السماء .. وبدت بعدها السماء صافية وفى زرقة ماء البحر.

وتصور من فى المحطة أنها طائرات مصرية فى طريقها إلى أسوان .. ولكنهم عرفوا بعد قليل من الاذاعة .. أن اسرائيل هجمت فى جبهة سيناء والطائرات مغيرة .. ووجم " سليمان" قليلا لما سمع الخبر ، ولكن ما عتم أن صفت نفسه ولانت ملامح وجهه .. فقد كان على يقين من النصر..

واخذ يسترجع فى ذاكرته كل ما سمعه ورآه .. من مواقف البطولة التى وقفها المصريون وهم يقاتلون الأعداء فى الزمن القريب والبعيد..

ورجع إلى ميدان المعركة وكان عالم الرؤية يبسط أمامه المواقع فى الجبهة .. تذكر هذا كله .. فرأى الجيش المصرى بكل فرقه بمشاته ومدرعاته ودباباته وطائراته يتقدم صوب اسرائيل لسحقها.

وظلت الصورة فى رأسه مبهجة تهز المشاعر .. حتى سمع همسا فى العصر يدور .. على ألسنة الناس .. فارتعش بدنه .. ولكن شجاعته لم تبارحه ويقينه من النصر لم يتزعزع .. فلم يصدق الخبر وغضب غضبا شديدا وكاد يحطم كل متحدث به حتى ناظر المحطة نفسه..

وفى الليل ظل جالسا وحده .. ينظر إلى الحقول .. ويسمع حركة القطارات وقد أطفأت أنوارها..

وكانت أسلاك البرق تهتز فوقه ، والظلام يخيم على القرى والمزارع والمحطة غارقة فى الظلام .. خيم جو الحرب بسرعة..

وكانت صفحة النيل هى الوحيدة التى تلوح بيضاء فى هذا السواد.

وخرج ناظر المحطة من مكتبه .. منفعلا يغلبه التأثر وقد أحس بمثل السكين تغوص فى قلبه .. وقال بصوت يرتعش من الغضب .. انهزمنا إسرائيل .. يا شيخ " سليمان " ؟ !.. يا للعار .. نتراجع يااللعار .. فلنقاتل حتى الموت .. لنعيش كراما..

وتجهم "سليمان" .. وأخذ يهدىء من روع الناظر .. ويعده بتحول الحال .. وظلت الأفكار تلاحقه .. أيذهب هو الى الجبهة .. إن ولديه حسن .. وعبد الرحيم .. هناك .. أيذهب هو أيضا ؟ .. إن زوجته قادرة على رعاية الأسرة فى غيابه ولكنهم لايقبلون تطوعه .. فهو شيخ قارب على الستين .. يكفى ولداه .. وقد يقتلان ولكن قبل أن يقتل أى واحد منهما سيقتل عشرة من

الصهيونيين على الأقل .. ويكفيه هذا فخرا .. وسيكون النصر .. والشجاعة توحى بالإيمان والأمل..

ظلت الأنبــاء عن المعركة متضاربة .. حتى الساعة التاسعة ليلا .. وفى الساعة العاشرة وقف قطار يحمل الجنود الذاهبين إلى المعركة .. فسرت انتفاضة فى جسم " سليمان " .. وأخذ يرحب بهم .. ويشعل فيهم نار الحماسة .. وبعد أن تحرك القطار .. أحس بصوت عجلاته يدوى فى قلبه..

وخيم السكون على المحطة .. وكان الظلام تاما فى كل مكان .. وعاد صوت الطائرات فى الجو .. وصوت المدافع المضادة يسمع من بعيد .. وسمع" سليمان" أن طيارا هبط بالمظلة بعد أن أصيبت طائرته قريبا من قرية تل العمارنة .. واختفى فى الحقول .. وأخذ البوليس يطارده .. وانتصف الليل ولم يعثروا له على أثر .. وازداد القلق والتوتر واشتعل رأس "سليمان".. وأخذ يرسم فى رأسه الدائرة التى يمكن أن يختفى فيها هذا الطيار .. بعد أن طارده البوليس بخيله ورجاله .. ووضحت الصورة فى ذهنه..

واعتقد أن القدر وضع فى طريقه حدثا جللا بعد كل هذه السنين الطويلات المدد ليمتحن قدرته على القتال..

ظل يعيش متنبه الحواس حتى الهزيع الأخير من الليل .. وكان على يقين من أن الطيار سيظل فى مخبئه لا يبارحه .. ثم يتسلل قبل نور الفجر ليذهب إلى الجبل .. أو إلى المدينة ويغيب فى زحمة الناس .. بعد أن يخفى مظهره..

وبارح سليمان المحطة فى خفة الثعلب وتسلق شجرة ملتفة داخل بستان الشيخ عرفان .. وكمن فيها .. وعيناه تتحركان فى كل اتجاه.

وفى حوالى الساعة الرابعة صباحا سمع حفيفا واهنا بين أوراق الشجر .. فتسمع ومد بصره .. فرأى شبحا يتحرك بحذر ناحية الشرق .. وتوقف الشبح ليأمن طريقه قبل التحرك .. كان الخوف يزيده يقظة فى كل خطوة .. ورأى "سليمان" عينيه تتوهجان فى الظلمة كما تتوهج عينا الثعبان وهو خارج من جحره .. ومال برأسه إلى اليمين مادا عنقه كما يفعل الثعبان تماما..

وأدرك "سليمان "دقة الموقف وخطورته .. لو تنبه الطيار المذعور إلى وجوده .. إن الذعر سيجعله يبادر بالحركة..

لقد حانت الساعة ليهاجمه .. وإلا فلتت منه الفرصة إلى الأبد .. وانتظر " سليمان " لحظات حابسا أنفاسه .. ثم هبط إلى الأرض .. يزحف على بطنه .. من جانب وجاعلا ظهر الطيار إليه .. حتى أحس بانفاسه وظل ملتصقا بالأرض يشتم ترابها ويده على زناد البندقية..

وأطلق الطيار أولا .. أحس وهو مرعوب بأن شيئا خطرا وراءه فاستدار سريعا وأطلق .. ثم دوى الرصاص .. من الجانبين .. بعنف فمزق سكون الليل .. ونبحت الكلاب بشدة .. وجرى الناس على صوت النار .. ووجدوا على بصيص النور الذى لاح مع نور الفجر "سليمان" يستدير لمواجهتهم والدم ينزف من كتفه..

وتحت شجرة ضخمة .. يرقد الطيار الصهيونى ساكنا وقد مزق جسمه الرصاص..

حدث منذ سنوات بعيدة .. أن سطا ثلاثة من عتاة اللصوص ـ فى ليلة شتوية مظلمة ـ على قصر ثرى من أثرياء الصعيد .. وتنبه لهم خفراء القصر رغم شدة الظلام .. أحس بهم الخفراء قبل أن يصلوا إلى الخزانة .. واشتبكوا معهم فى معركة نارية .. ولكن اللصوص كانوا أشد مراسا وأقوى سلاحا .. فاضطر صاحب القصر لنفوذه أن يستنجد بعساكر المركز والمديرية وأسرعت قوة كبيرة وحاصرت اللصوص وقبضت عليهم .. ولكنهم كانوا فى ساعة الاشتباك قد قتلوا اثنين من العساكر وجرحوا ثلاثة.

وسيق اللصوص الثلاثة إلى المركز فتلقفهم العساكر بالضرب المبرح والركل انتقاما لما حدث لزملائهم فى المعركة واشفاء لغل صدورهم.

وحول اللصوص والدماء تنزف منهم إلى السجن .. وخشى مدير السجن المغبة لشدة الاصابات وأكثرها ظاهرة للعيان .. فحولهم إلى المستشفى الحكومى.

وكشف عليهم الطبيب المختص ودون كل ما وقع عليه نظره ولمسه كطبيب خبير من إصابات وجروح فى اللحم والعظم .. كتب هذا فى تقرير دقيق مفصل.

وشاع كل ما كتب فى التقرير فى أرجاء المستشفى بعد ما رفعه الطبيب إلى رئيسه مدير المستشفى.

وكان حكمدار البوليس فى مكتب مدير المستشفى بسبب ما وقع .. فاطلع على التقرير وهاله ما دون فيه ونهض مسرعا إلى حجرة الطبيب وفى عينيه شرر الغضب .. وابتدره بقوله فى غلظة :

- ما هذا .. يا دكتور ..؟ !
- ولوح بالتقرير ويده ترتعش غضبا .
- ورد الطبيب بهدوء مالكا أعصابه
- تقرير من طبيب مختص عن اصابات حدثت للناس .
- ولكن هؤلاء الناس لصوص .. وقتلة .
- القتلة ستحاكمهم المحكمة يا سعادة الحكمدار على جريمتهم ولا أحد غير القضاء هو المختص بمحاكمتهم .. فلا أحاكمهم أنا ولا سعادتك .
- ولكن التقرير فظيع .. وواضح الإدانة على العساكر .
- دونت الحقيقة خالصة من كل غرض .
- لم يحدث مثل هذا فى تقرير يكتبه أطباء الحكومة .
- لكنه حدث ..
- تقول هذا بكل هوء وأنت لاتعرف العواقب .
- لو فكرت فى العواقب .. ما زاولت هذه المهنة قط . ولانت ملامح الحكمدار وغير من لهجته تحت إصرار الطبيب وعناده .
- يا دكتور .. أنت فى سن ابنى مراد .. وأنا أنصحك الآن كما أنصح ابنى .. وأرى لصالحك أن تغير من بعض ما كتبته فى هذا التقرير .
- هذا لايمكن أن يحدث .
- هل فكرت أن هذا سيذهب بهيبة السلطة .. ويشل حركتها .. وإذا ضاعت الهيبة ضاع الأمن فى البلد .. وبهذه الهيبة نحميك أنت قبل أن نحمى غيرك .
- ليس الأمر على النهج الذى تصورته سعادتك .. ولو اتبع من بيده القانون لاستراحوا وأراحوا .
- يعنى نترك المجرمين والقتلة وقطاع الطرق يعيثون فى الأرض فسادا .. وإذا وقعوا فى أيدينا نربت " نطبطب " على ظهورهم .
- لم أقل هذا ولا أقبل أن أدافع عن مجرم ولا سفاح .. ولكنى أقرر الحقيقة كطبيب .. فى عمل من أخص خصائص مهنتى .. فمن الذى يكشف عن الجريح . الطبيب أو غيره ..؟ انه عمل الطبيب وحده .
- ولكن ما كتبته سيجر .. إلى أمر لاتدركه أنت فى هذه الساعة سيجر إلى ضياع السلطة وشيوع الفساد . وأشعل الحكمدار سيجارة .. واستطرد :
- طيب عدم بعض العبارات .. مثل جرح عميق بطول .. وتهتك فى قفص الصدر .. وكسر فى

الترقوة .. ومثل هذا كثير يحتاج إلى التعديل .

- ولا حرف .
- يابنى .. تعبت معك .. سأرى مدير المستشفى وقد يثنيك عن عزمك .. وتقبل منه النصح . وجاء مدير المستشفى ولكن الدكتور " اسماعيل " ظل على إصراره ورفض . وأخيرا قال له المدير :
- يا بنى أنت متزوج حديثا .. وأصبحت أبا لطفل .. وعليك مسئولية الأبوة .. وأرجو أن تقدر المئولية .. وأنت لاتعرف ما يجرى تنقصك التجارب . وسقط مدير المستشفى فى نظر الطبيب الشاب .. سقط سقطة أبدية . وسأل الطبيب الشاب مديره :
- وما الذى تريده منى ..؟
- تغير من لهجة التقرير الحامية !..
- أغير الحقيقة .. وأكتب الباطل .. أزور .. هل هذا هو ماتعلمته من الدكتور عبد العزيز اسماعيل .. والدكتور على ابراهيم .. والدكتور محمد صبحى .. والدكتور أحمد شفيق .. هل تعلمت من هؤلاء الأفذاذ التزوير .. حتى أكتبه .. حرام عليكم حرام .. وحرام أن يصل الهوان بنا إلى هذه الدرجة .
- يعنى تصر على رأيك ..؟
- إلى يوم القيامة .. وتناول المدير التقرير وخرج غاضبا .. وعلم زملاء الدكتور اسماعيل بما حدث .. فانقسموا قسمين قسم رأى التغيير .. وقسم رفض . وشاع أمر التقرير فى المستشفى بين المرضى والجرحى والممرضات والأطباء .. كان ما فعله الدكتور إسماعيل بقوله الحقيقة هو شىء شاذ وغير مألوف فى حياة المستشفيات.

وعندما رجع الدكتور إسماعيل إلى بيته .. لاحظت زوجه حاله .. وعلمت بالخبر .. فظهر على وجهها الألم .. وحاولت كتمان آلامها فى تحركاتها فى الشقة وانشغالها بطفلها وعملها البيتى . ثم لما سألها عن رأيها قالت له :

- من رأيى أن تنزل عند رغبتهم .
- هكذا بكل بساطة !..
- نعم ..
- يا لخيبتى فيك .. كان يسعدنى أن أسمع عن سيدة مصرية من هذا الجيل وقفت بجانب زوجها فى وجه العاصفة حتى تمر .
- أنت تعيش بخيالك وبعيدا عن عذاب العيش ولقمة العيش وهو الشىء الذى تشعر به المرأة .. وتعمل له الحساب قبل الرجل .
- ولماذا هذا المنظار الأسود .. وتتوقعين الشر ..؟
- لأنى أرى فى كل ما حولى .. انتصار الشر .. وسيبقى صراع الخير والشر أزليا .. سيبقى الصراع أبديا إلى قيام الساعة ، وتلك إرادة الله وحكمته .
- ولهذا علينا أن نقاوم الشر بكل ما أعطانا الله من قوة .. حتى نقضى عليه .
- لو أراد الله الخير الخالص فى هذه الدنيا .. لما أبقى الشيطان فى الأرض بعد أن عصاه وأخرجه من الجنة .. أبقاه يعيش مع الإنسان فى الأرض لأنه جل وعلا هو الذى خلق الإنسان ويعرف طبيعة تكوينه عندما ينزع إلى الخير .. وعندما يكون شرا من الوحش فى ضراوته إذا نزع إلى الشر ..
- يعنى أبقى الشيطان على الأرض لأن الحياة الدنيا لاتستمر فى مسيرتها بغير شيطان وشياطين !..
- نعم .. والا فكيف تختلف عن الجنة .. فى الجنة النعيم المقيم .. وفى الأرض الخير والشر وإذا قاومت الشر وحدك وأنت ضعيف ستخذل حتما .. تلك سنة الحياة .
- ولكن أشعر بكل الناس معى .
- أين هم .. أنى لا أرى حتى زميلا لك من أطباء المستشفى .. جاء ليزورك ..؟
- سترينهم . وسمعت قرعا على الباب فمشت اليه وهى تتوقع زيارة صديق ممن يزورنه فى بيته .. ولكنها وجدت خالة لها قادمة بزيارة من الريف فانشغلت بها .. ودخل إسماعيل إلى حجرته بعد أن حيا الضيفة ورحب بها.

وفى اليوم التالى زاره وكيل الحكمدار فى بيته .. وكان الدكتور اسماعيل يتصور أنه جاء ليرجوه كغيره تغيير ما كتبه فى التقرير .. ولكنه وجده يشجعه على شجاعته ووقوفه فى وجه العاصفة التى أثيرت حوله.

وأخيرا قال له وكيل الحكمدار فى حماسة وهو يبتسم :

- يابنى أنت لم تر جدك " عبد المنعم " ولكنى رأيته .. فيك كل طباعه وكل صفاته .. أنا كنت ضابطا صغيرا فى النقطة ببلدكم .. وطوال مدة خدمتى فى النقطة والمركز لم يدخل فلاح واحد من أهل قريتكم نقطة ولا مركز.

عاش جدك عبد المنعم ومات وهو عمدة ولم يذهب فى حياته فلاح واحد من أهل القرية نقطة ولا مركز .. وكان يقول لى :

- أهين أهل بلدى .. وأجرهم إلى سجن المركز .. لا .. قد يخرج الطيب منه شريرا فى يوم وليلة .. لا لن يحدث هذا وأنا بصحتى أن وظيفتى كعمدة فى حسم الأمور هنا .. وإلا فلا خير فينا للناس المساكين الذين لاحول لهم ولا قوة..

كان يعالج الأمور بطريقته الفذة .. سرقت جاموسة من " شريفة " وجاءت تشكو له .. فيقول لها بابتسامته الوضاءة :

- طيب روحى يا شريفة . وفى الصباح التالى تعود الجاموسه إلى بيت " شريفة ". وهكذا ما يحدث من سرقة وعراك مع الفلاحين .. وما يحدث فى سوق القرية .. وفى غيطانها ونجوعها .. وفى زمن الفيضان وفتح الخزانات .. والنزاع على الرى .. وجنى القطن .. وضم المحصول .. وحراسة الأجران والجسور.

مئات الأشياء التى كان ينهيها بقوة مراسه وهيبته وتجاربه ومعرفته بخلق الفلاحين وطباعهم . وكانت قريتكم أول قرية أضيئت شوارعها بالفوانيس وأول قرية لم تحدث فيها حادثة قتل واحدة طوال مدة حكمه التى جاوزت عشرين عاما .. كنا نسميها القرية الآمنة .. فأنا يا بنى لم أدهش لفعلتك ولم أستغرب كما فعل غيرى فأنت خليفة والدك وجدك . وشكر الدكتور اسماعيل وكيل الحكمدار وسره أن يكون من رجال القوة فى المديرية من هو على هذه الصفات الحميدة . *** وبعد ثلاثة أسابيع نقل الدكتور إسماعيل إلى " أرمنت " . ولما علمت زوجته بأمر النقل تركته إلى أهلها .. ووقف هو على رصيف المحطة وحده ينتظر القطار الذى سيقله إلى مقر عمله الجديد.

ولمح شبحا يتحرك فى سكون الليل .. والسنافورات تتحرك والريح تعوى وتصفر فى الأسلاك .. ولما اقترب عرف الدكتور إسماعيل أنه معاون المحطة .. وقال المعاون وفى صوته رنة الأسى:

- جئت أودعك يا بنى وأسلم عليك وأحيى شجاعتك فى هذا الزمن النكود ..
- شكرا يا عم " سمعان " فيك الخير ..
- لا تتصور أنهم انتصروا عليك بنقلك .. أبدا أنت المنتصر والناس تتصور دائما لغباوتها .. أن الحق مطموس وضائع .. والشر ينتصر على طول الخط .. وهذا خطأ.

اذهب الآن إلى المدينة بعد ما عرفوا فعلتك تجد الجميع يفخر بك ويصفق لك .. دخلت فى قلوب الملايين .. وسترى هذا الأثر فى عملك لو فتحت عيادة خاصة .. الناس لاتنسى الشجاعة أبدا ولا موقف البطل .. ولا تغفر قط للجبان الرعديد .. حتى وان كانوا هم فى أعماقهم جبناء لأنهم يقدرون من عبر عن شعورهم وما عجزوا هم عن فعله .. ومن هنا تكون صفات البطولة للبطل . أنه الفرد الذى تكلم وعبر عن خلجات الجماهير الضائعة فى تيه الحياة.

ولا تفكر بطريقتهم ولو ضربنا وعذبنا كل مجرم وسفاح .. ما كانت هناك محكمة ولا محاكم فى الأرض.

- شكرا ياعم " سمعان " ملأتنى ثقة فى جوانب نفسى .. ولكن أشد ما يؤلمنى الآن ألا أجد زميلا واحدا جاء ليودعنى على المحطة .
- اعذرهم .. يا بنى .. قد يكون لهم عذرهم .. وقد يعوضك الله فى مقرك الجديد من هو خير منهم .
- شكرا لكلماتك الطيبة .. شكرا ..
- جاء القطار .. وقد حجزت لك أحسن المقاعد .. وخذ منى هذا التذكار البسيط.

وتناول الدكتور اسماعيل التذكار من المعاون وعيناه مخضلة بالدمع..

وكان القطار وهو يدخل المحطة يصفر وأنوار عرباته تتوهج فى الظلمة.

# عضة الكلب

بقلم محمود البدوي

فى شتاء عام ١٩٦٤ نقل طبيب الأسنان الدكتور " حسن بهجت " من القاهرة إلى وحدة صحية فى الريف .. وكان الطبيب الشاب على عكس الأطباء الذين هم فى سنه .. والذين ينقلون من المدينة إلى الريف دون رغبة .. ودون تمهيد .. فيشعرون بالمرارة والضيق النفسى والقلق .. كان على عكسهم تماما .. فقد شعر بالبهجة .. والتفتح النفسى والتطلع الواسع .. وكان فى أعماقه يتوق إلى هذه التجربة الحية .. إلى العيش فى قلب الريف .. مادام قد عاش إلى هذه اللحظة مدنيا صرفا .. ليخرج بشىء لايجد مثله فى الكتب.

ولما كان غير متزوج فقد أقام فى السكن المخصص له بالوحدة .. وكانت القرية التى تقع فيها الوحدة من القرى الكبيرة والمواصلات إليها سهلة .. فهى قريبة من محطة السكك الحديدية .. ومن الطريق العام لسيارات الأجرة .. وأهلها وادعون مسالمون يشتغلون بالزراعة وتجارة المواشى .. وفيها سوق كبير يتجمع فيه أهل القرى المجاورة فى يوم الإثنين من كل أسبوع .. ويتبادلون السلع بكل الوانها وأشكالها..

ولاحظ الطبيب الشاب شيئا فى المرضى الذين يترددون على الوحدة .. شيئا لم يلتفت إليه أولا .. ثم شد انتباهه بعد أن برز بوضوح كطلعة الشمس .. لاحظ ندبة فى الصدغ الأيمن من كل رجل يدخل الوحدة .. ورأى أن الندبة برزت وأصبحت كالدمل المقروح فى وجوه الرجال فقط .. ولم يرها فى وجوه النساء والأطفال..

وأدركه العجب وخرج يمشى على جسر القرية وبين دروبها ليتأكد مما شاهد فوجد الندبة ظاهرة فى وجوه الرجال .. وبارزة بوضوح .. واضطر بعد هذا التعميم أن يسأل أحد مرضاه عن سببها فعرف أنها عضة كلب.

ودخل شيخ البلد العيادة فرآه الطبيب وفى صدغه العضة .. فسأله فى استغراب : ـ حتى أنت ياشيخ على ..؟ ـ حتى أنا يادكتور .. لم يترك الكلب رجلا فى القرية إلا عضه . ـ الرجال فقط ..؟ ـ أجل .. وبفراسة شديدة .. اختار الرجال لفعلته وترك النساء والأطفال .. لم يقترب من أحد من هؤلاء . ـ ومتى حدث هذا ..؟ ـ منذ أكثر من سنتين .. وبنظام وترتيب .. بدأ بالذين فى البيوت والدروب ثم خرج إلى الغيطان .. وكان يثب كالليث .. ويتخطى الحواجز .. ولم يعض إنسانا مرتين أبدا .. فعلها مرة واحدة . ـ وقتلتموه ..؟ ـ أبدا .. لقد كان فى ضراوة الأسد وشدة بأسه .. فمن الذى يجرؤ على الاقتراب منه .. إنه هو الذى كان يستطيع قتلنا .. ولكنه اكتفى منا بترك هذه العلامة . ـ وهل لايزال فى القرية ..؟ ـ أبدا .. خرج فى ليل ولم نعد نراه..

وشغلت هذه الظاهرة العجيبة بال الطبيب .. واستغرقت كل تفكيره .. وكلما مشى على الجسر وشاهد الفلاحين العائدين بدوابهم من الغيطان .. والسائرين فى الدروب وعلى وجوههم نفس الندبة فى الصدغ الأيمن يتعجب ويتساءل .. قد يكون كلبا مسعورا ككل الكلاب المسعورة .. انتابته حالة سعار من مرضه .. ولكن لماذا التعميم والتخصص ..؟ أهو شيطان فى جسم كلب ..؟ وأخذ الطبيب يسأل الموظفين فى الوحدة وزملاءه الذين جاءوا إلى القرية فى زمن قبله.

فعلم أنهم هبطوا القرية ووجدوا أهلها على هذه الصورة .. ولم يشغلهم الأمر أو يستلفت نظرهم لأنهم ظنوها خلقة طبيعية .. ومنهم من سمع أنها عضة كلب .. ومرت الأيام وألف من فى الوحدة هذه الوجوه على حالها.

ولكن الدكتور بهجت .. ظل فى حيرة من أمر هذه الظاهرة .. وتعجب كيف تكون عند الكلب هذه القدرة على ترك هذه العلامة فى رجال القرية جميعا أمام سطوته ..؟ وهم يعرفون أنه يطاردهم فى كل مكان .. قد تكون عضة واحدة فى صدغ رجل واحد وانتقلت بالتصور إلى جميع الوجوه.

وأخيرا قرر الطبيب أن يصلى الجمعة فى مسجد القرية الذى يجمع صورا مختلفة من أهلها .. الشيوخ والشبان .. ليتأكد من هذه العلامة الغريبة .. ولما دخل المسجد رأى الندبة برسمها وحجمها على وجوه المصلين جميعا.

وخرج المصلون من الجامع .. واختار الطبيب أكبر المصلين سنا .. وكان شيخا وقورا .. مال به الطبيب إلى جلسة تحت المحراب وسأله وهو يشير إلى صدغه : ـ وهل هذه الندبة عضة كلب أيضا .. ياشيخنا الكبير ..؟ ـ أجل .. يادكتور .. ـ إنه شيطان إذن مادام يعض الصالحين المتوضئين من أمثالك .. ـ إنه ليس بشيطان .. إنه نذير .. ـ وهل إذا رأيت الكلب تعرفه ..؟ ـ بالطبع أعرفه .. وكل القرية تعرفه .. لقد كان من كلاب القرية .. وأخذه " عبد الجابر السحلاوى " وأصبح من زمرة كلابه .. إلى أن حدث ما حدث واختفى الكلب بعدها .. ـ وما السبب الذى أهاج الكلب .. لقد سألت الكثيرين فلم أعرف السبب الحقيقى .. الأقوال متضاربه .. ـ الناس يشعرون بالخجل يادكتور .. من تصرفاتهم .. عقدة الذنب .. استقرت فى أعماقهم .. فمنعتهم من الكلام .. لأن فى التصريح بالكلام ورواية الحقيقة عارا .. وعارا أبديا .. على أهل الريف .. أهل الريف الذين عاشوا طول عمرهم يتعاونون فى السراء والضراء .. ويغيثون الجار ويدافعون عن المظلوم .. ولكنهم تغيروا الآن يادكتور .. وانقلب حالهم .. وتسلطت عليهم الأنانية فى بشاعة .. حتى لاتجد فيهم من مروءة الرجال من يذوذ عن امرأة مسكينة .. لقد اقتص الكلب من أنانيتهم وانشغال كل منهم بحاله .. غافلا عن حالة أخيه .. مادام لايصيبه من أمرها مكروه .. فكر فى السلامة لنفسه .. ولم يفكر فى سلامة الآخرين الذين يعيشون بجواره وفى حضن قريته وزمامها..

لقد كان " عبد الحافظ " مدرسا فى المدرسة الاعدادية بالقرية .. وغريبا عن أهل القرية .. جاء ليهديهم ويعلم أبناءهم .. ولكنهم خذلوه فى خسة وضعف .. أشفق المسكين على حالهم عندما رأى " السحلاوى " يستولى على ريع السوق ويتاجر فى سماد الجمعية المخصص لهم .. ويسرق قوتهم وقوت عيالهم .. ويسيطر على كل شىء بنفعية وتسلط .. فحرك الفلاحين ليقفوا فى وجهه .. ويطالبوا بحقهم .. ولكنهم تخاذلوا فى ضعف مشين..

وطلب منهم أن يشتكوه لمن يرد لهم حقهم المسلوب .. ولكنهم كانوا يعرفون بالخبرة أن الشكوى لاتنفع وسترتد إلى صدورهم .. فسكتوا..

ولم يرض " عبد الحافظ " بهذا وكتب هو الشكاوى بلسانهم .. ولكن الشكاوى كانت تموت لسطوة " السحلاوى " وكثرة معارفه من ذوى النفوذ .. وعلم " .. السحلاوى " .. أن كاتب هذه الشكاوى هو " عبد الحافظ " .. وفكر فى الانتقام منه سريعا..

وكان " عبد الحافظ " لأنه أعزب .. وليس من أهل القرية قد اختار مضيفة الحاج " حسانين " القريبة من المدرسة كمنزل إقامة .. وكانت المضيفة قريبة من حوش البهائم الخاصة " بالسحلاوى " ومن منزله .. وعند " السحلاوى " كلاب شرسة مدربة على الحراسة ونهش من يقترب من البهائم .. وكل من سار فى الليل واقترب من حوش " السحلاوى " ومنزله يخافها لشراستها .. وكان " السحلاوى " لايريد اغتيال المدرس الغريب مواجهة وإنما فكر فى تعذيبه وإذلاله . وفى ليلة من ليالى الصيف أطلق عليه وهو نائم كلبا من كلابه الشرسة .. وشاءت إرادة الله أن يعرف الكلب " عبد الحافظ " ويحفظ له صنيعه عنده .. فقد أطعمه " عبد الحافظ " ذات ليلة من ليالى الشتاء الشديدة البرودة .. وأواه فى المضيفة .. وكان الكلب وقتها طريدا شريدا.

وعرفه الكلب .. فنام بجواره يحرسه بدلا من أن ينهش لحمه .. وجن جنون السحلاوى عندما رأى " عبد الحافظ " لم يمس بسوء .. وما كان يفعله مستخفيا .. أخذ يفعله علانية وهو فى حالة هياج .. فأخذ يضرب الكلب .. ويطلقه على المدرس .. ولكن الكلب لم يستجب له اطلاقا .. فرأى أن يضع مع الكلب كلبا آخر ليحرضه على افتراس المدرس المسكين الذى أخذ يستغيث بأهل القرية فلم يغثه أحد .. كانوا مشغولين بحالهم .. ويخافون من بطش " السحلاوى " فتخاذلوا عن غوث الغريب.

وأخذ " السحلاوى " بعين الوحش يرقب ما يجرى أمامه ولكن .. خاب فأله .. فقد افترس الكلب الأول الكلب الثانى وألقاه جثة هامدة . ولمح " السحلاوى " عين الشر فى عين الكلب الأول فلم يقترب منه وإنما قرر أن يقتله بمسدسه.

وفى اللحظة التى فكر فيها أن يفعل هذا كان الكلب الأول قد وثب عليه وألقاه على الأرض .. بعد أن عضه فى صدغه تلك العضة .. ووضع فى وجهه تلك العلامة المميزة .. وارتعب " السحلاوى " وغشى عليه .. ولما أفاق كان الكلب قد خرج من القرية..

ولكنه عاد إليها وأخذ يعض الرجال من أهلها بالصورة التى رأيتها فى وجوههم.

وبعد هذه الحادثة لفق " السحلاوى " تهمة للمدرس المسكين ونقله من القرية .. وسافر " السحلاوى " ليعالج نفسه من عضة الكلب وطال غيابه .. وصمت الشيخ قليلا ليرى أثر حديثه فى وجه الطبيب الشاب ثم قال:

ـ هذه هى قصة " العضة " التى تراها فى وجوهنا يادكتور " بهجت " وأرجو أن تساعدنا أنت وزميلك الجراح على إزالتها ..! ـ مع الأسف ياحاج .. لاأستطيع ذلك .. لاأنا .. ولا زميلى الجراح .. ـ كيف .. يادكتور .. كيف ..؟ ـ لأنها من عملكم وخصائص نفوسكم .. ومتى تغيرتم ستزول .. ـ بغير جراحة ..؟! ـ بغير جراحة..

وشكر الدكتور " بهجت " الشيخ الكبير على حديثه .. وأخذ طريقه إلى الوحدة ، وهو يفكر فى طريقة عملية ليخرج الخوف من نفوس هؤلاء المساكين الذين أصابهم الكلب بهذه الوصمة .. وتمنى أن يرى " السحلاوى " والكلب والمدرس وبعد هؤلاء الثلاثة سيعالج الخوف بطريقته.

ومع دوامة الحياة تصور " عبد الحافظ " أنه نسى ما حدث له .. ولكن تصوره كان خاطئا .. فقد كان الجرح عميقا وضاربا فى أعماق النفس . وذهب يسأل عن " السحلاوى " فعلم أنه مات .. ومات مع قوته الانتقام .. ونسى عبد الحافظ ما حل ولكنه فوجىء بعد ذلك بمن يخبره أن " السحلاوى " حى وفى بلده .. فأشعلت فى نفسه جذوة الانتقام التى حسبها تحولت إلى رماد .. وقرر أن يغتاله فى نفس المكان الذى عذبه وأذله فيه .. نفس المضيفة.

وركب القطار إلى القرية بعد أن تسلح .. ووصل إلى بساتينها ساعة العصر .. ورأى أن يظل فى البستان إلى الساعة التى يختارها فى الليل للتحرك.

وبعد وصوله بأقل من ساعة شاهد جنازة طويلة تتجه إلى المقابر القريبة من البساتين .. فسأل عنها .. وعلم أنها جنازة " السحلاوى ". وتعجب وقال لنفسه : ـ مات " السحلاوى " فى اليوم الذى قصدته فيه .. ما أعجب الدنيا بتصاريفها .. وتعجب أكثر من طول الجنازة وعرضها .. فقد خرج وراءه رجال القرية جميعا . وردد لنفسه : ـ إنهم يخافونه ميتا .. أكثر مما يخافونه حيا..

ودخل " عبد الحافظ " فى خط الجنازة مع الرجال .. وتلفتوا بأصداغهم التى عضها الكلب .. وتهامسوا .. ـ جاء المدرس .. يشترك فى الجنازة .. ونسى ما فعله فيه .. ـ إنه نبيل .. وفجأة اضطربت الصفوف المتراصة الواجمة .. ورفعت رؤوسها المنكسة .. وصاح الرجال : ـ الكلب .. الكلب..

وأصابهم الذعر .. ووضعوا النعش على الأرض .. وانطلقوا يمينا وشمالا فى الغيطان يسابقون الريح .. ونظر " عبد الحافظ " فوجد الكلب واقفا على القنطرة التى سيعبر منها الرجال إلى

المدافن .. إنه نفس الكلب ولكنه تضخم أكثر وغدا أشبه بالأسد فى ضراوته .. تقدم " عبد الحافظ " نحوه بثبات وناداه : ـ تعال .. يامبروك .. تعال إلى صاحبك .. واتجه الكلب إليه بعد أن عرفه .. وهو يحرك ذنبه فرحا بلقاء صاحب قديم..

ووضع " عبد الحافظ " يده على رأس الكلب ومسح على ظهره بنعومة .. وطوقه بذراعيه .. ثم أشار إليه بأن يبتعد .. فانسحب الكلب وهو يشيع صاحبه بنظرة لم تصدر مثلها من إنسان .. وانحنى " عبد الحافظ " على النعش ليحمله .. وشجعت هذه الحركة الرجال .. فعادوا إلى الجنازة من جديد .. عادوا وهم يشعرون أن حركة الكلب قد فعلت شيئا فيهم لم يدركوه بعد .. وهم يتحركون فى صمت .. والمدرس الغريب بينهم وفى رأس الصفوف..

# رجل على الطريق

**بقلم محمود البدوي**

اشتغلت وأنا فى العشرين من عمرى فى شركة من شركات الملاحة بالسويس براتب تافه ، كنت أسكن بنصفه ، وأشرب بالنصف الآخر جعة ، ولا أحفل بعد ذلك بشىء فى الوجود ، وكنت أقيم مع أسرة إيطالية تسكن فى منزل صغير على شط القناة فى بور توفيق ، وتعيش عيش الكفاف . وقد كانت الحياة شاقة على شاب فى مثل سنى ونشاطى فى هذه المدينة الصغيرة التى ليس فيها شىء سوى القناة ، ومنازل الشركة المتناثرة على الشاطىء ، وسكانها جميعا من الأجانب الذين وضعتهم الأقدار العجيبة فى هذا المكان ، ولاصلة تربطهم بالمواطنين ولا مودة ولا إخاء.

على أن ولعى بالمطالعة ، وحبى للهدوء ، خففا مما كنت ألاقيه من وحدة ووحشة فى هذه الضاحية . وكنت أذهب كل مساء إلى السويس لأشرب الجعة فى مشرب صغير ، وأتمشى فى طريق الزيتية .. ثم أعود إلى بور توفيق لأنام.

وكنت أجد على رأس الطريق الموصل لبيتى رجلا غريب الأطوار ، يجلس على الحشائش قرب القناة وبجواره كلب ضخم وزجاجة فارغة ...! وكان الرجل يجلس ينظر دائما إلى ناحية القناة ، ويخط باهتمام فى دفتر أمامه .. ويجلس هكذا معظم النهار ، فإذا غربت الشمس حمل متاعه ومضى ووراءه كلبه واختفى فى الظلام.

وكان موضع السخرية من العابرين فى الطريق .. وكان أكثر الناس سخرية به العمال الذاهبون إلى ورش الميناء .. وما كان الرجل يعبأ بسخريتهم أو يحفل بكلامهم .. كان يمضى فى عمله ولا يجيب . ولعلى كنت الوحيد الذى يمر به فى الصباح والمساء ولا يسمعه كلمة نابية ، ولذلك كان ينظر إلىّ فى استغراب ودهشة . وكنت أخرج لأتمشى كل أصيل ومعى كتاب .. وأتخذ طريق القناة عادة .. وأجلس هناك على كرسى حجرى أطالع ، والرجل على مقربة منى يكتب فى كراسته ، ودنوت منه ذات مرة ، وجلست إلى جواره فوق العشب ، وحييته فحيانى بهزة من رأسه وهو يبتسم ، ومر مركب فى القناة فانحنى على كراسته وكتب شيئا فى تمهل وعناية . فسألته : ـ ماذا تكتب ..؟ فنظر إلىّ بوجه ضاحك وقال : ـ إننى أتلهى..

ثم أضاف وقد لمعت عيناه بعض الشىء : ـ لقد كنت ملاحظ " فنار " فى البحر الأحمر ، وكان هذا هو عملى فى النهار والليل .. أرقب السفن وأدون أسماءها ، وأنا أفعل هذا الآن بحكم العادة ، وأجد فى ذلك لذة تنسينى متاعب الحياة..

ـ لاشك أن العمل فى المنارة وسط البحر ممتع للغاية .. ـ جرب وسترى .. ثم شاعت فى وجهه ذى التجاعيد ابتسامة عريضة وسألنى : ـ هل أنت متزوج.. ؟ ـ لا .. ـ إذن فيمكنك أن تركب البحر إلى هناك .. ولا بأس عليك .. كتاب وفونوغراف ، وكل شىء سيمضى على سننه .. أما إذا كنت متزوجا فستعود من هناك نصف مجنون ..! ـ وهل اعتزلت هذا العمل من مدة ..؟ ـ مدة طويلة جدا يا بنى .. منذ سنين وسنين .. وتغير صوته وأطرق .. فأدركت أنه تذكر شيئا يؤلمه .. فتحولت بوجهى عنه ، وأخذت أقلب صفحات الكتاب الذى معى حتى أقبل المساء ، فحييته وانصرفت.

***والتقيت به بعد ذلك كثيرا فى هذا المكان حتى توثقت بيننا مودة صادقة . وكان الرجل مخمورا أبدا ، وما رأيته غير ثمل فى نهار أو ليل ، وكانت زجاجة الخمر معه لاتبارحه قط ، وكان ادراكه الصحيح للحياة قد جعله لايعبأ بشىء مما تواضع عليه الناس ، فهو يسكر وينام فى الطريق . وما رأيته متبرما بشىء ، أو شاكيا من شىء.

ورآنى مرة فى حانة صغيرة فى مدينة السويس .. أتحدث مع زوجة صاحب الحان .. فلما انصرفت المرأة لعملها جاء وجلس إلى مائدتى .. وسألنى:

ـ لماذا تسكر فى هذه السن ..؟ ـ لأننى أشعر فى أعماق نفسى بالتعاسة ـ إن هذا أحسن جواب لسكير ..! ـ ولماذا النساء ..؟ فصمت ولم أقل شيئا .. واستطرد هو : ـ انك تسكر لأنك وحيد .. ولا رفيق ولا أنيس لك فى هذه المدينة الكئيبة ، ومع كل مساوىء الخمر فإنها قربتك منى ولم تجعلك تسخر من ضعفى ، وأنا أشرب على قارعة الطريق فى بور توفيق ، إنك تدرك الضعف الإنسانى لأنك إنسان ..! ـ إن هذا لايغير من نظرة المجتمع إلى السكير .. ـ هذا صحيح .. ولكنى أسكر رغم أنفى وكذلك أنت . وهناك شىء فوق إرادة الإنسان يربطنا بهذه الدنان .. وإن تشرب فى ساعة مظلمة من حياتك ثم تصحو .. إن هذا لاشىء .. ولكن النساء .. هذا شىء آخر .. إنك لا تستفيق من خمرهن إلا وأنت ساقط فى الهاوية .. وجاء له الساقى بكأس فشربها وعض على نواجذه .. ثم أشعل لفافة من التبغ ، وأخذ يسرح الطرف فى سماء الحان .. فسألته وأنا أنظر إلى وجهه وقد غضنته السنون:

ـ لماذا تركت البحر ..؟ ـ إنها الأقدار .. ثم صمت .. وأمسك بالكأس البللورية الفارغة .. ورفعها إلى عينيه كأنه يقرأ فيها من لوح الغيب . ثم سألنى : ـ أركبت البحر ..؟ ـ ذهبت منذ سنتين إلى استامبول .. ـ أشاهدت منارات فى الطريق ..؟ ـ أجل .. ـ سأحدثك عن قصة منارة من هذه المنارات..

ووضع الكأس البللورية على المائدة .. وأشعل لفافة أخرى وأقبل علىّ يتحدث:

ـ كنت أعمل فى منارة بالبحر الأحمر منذ سنين .. وكان معى زميل لى يساعدنى على العمل . أمضيت شهرين فى المنارة وسط البحر .. ولا شىء تراه هناك غير البحر .. وكنا نطالع ونصطاد السمك ، ونسمع الفونوغراف .. وننير المنارة فى الليل للسفن ، ونغنى ونفعل كل شىء لنتلهى . ولكنك فى ساعة من الساعات تحس كأن شيئا يثور ويضطرب فى أعماق نفسك ، فتكاد تمزق الكتاب وتحطم الفونوغراف .. وتشعر بسأم .. وتضيق ذرعا بكل شىء .. وتحس بالاختناق .. وتنظر ولا ترى حولك غير البحر ، وبينك وبين الأرض سفر أيام ، فى هذه الساعات كنت أجلس على سلم المنارة وأدلى بساقى فى الماء .. وأحلم بعرائس البحر التى قرأت عنها فى الأساطير .. وأتصور أن واحدة منهن ستطلع وتجىء إلىّ .. وتمر سفينة من بعيد ، وأنوارها ترقص على الموج ، وأتصور أننى أسمع ضحكات نساء .. ورقص نساء .. وأرى بعين الخيال واحدة منهن تتجرد من ثيابها وتتهيأ للنوم ، فيأخذنى السعار .. وأظل أفكر وأحلم فى المرأة .. ولا شىء غير المرأة .. إنها تأخذ عليك مسالك تفكيرك ، وتشغل حواسك ، فإذا رأيت شيئا أبيض يلوح فى سفينة من بعيد تصورته ساق امرأة .. وإذا أبصرت شيئا ينثنى على سطح مركب تصورته امرأة .. إنك تراها فى كل شىء ولا تراها .. وكنت أنا وزميلى أحسن صديقين .. كنا نعمل فى صفاء ووئام .. وكان الطعام لابأس به ، ووسائل التسلية متوفرة .. أما إذا جن الليل وثارت الغريزة فقد انقلب كل شىء إلى جحيم.

وكان صاحبى متزوجا وكنت أعزب ، وكان يحب زوجته ويحدثنى كثيرا عنها .. ومضت شهور ، واقترب موعد عودتى إلى السويس لأستريح فى الأجازة المقررة لأمثالنا . وجاءت الباخرة التى

ستقلنى إلى السويس ، وأعطانى صاحبى رسالة إلى زوجته . *** وأمضيت أياما فى السويس ، والرسالة موضوعة فى جيبى حتى كدت أنساها .. وفى أصيل يوم ذكرتها ، فاتجهت إلى بيت صاحبى وكان فى أقصى المدينة .. وتقدمت فى الشارع الضيق ، وشمس الأصيل تضرب رؤوس المنازل البيضاء بأنوارها الساطعة ، وكل شىء يسبح فى الضوء الباهر .. ووقفت أمام البيت ، واجتزت العتبة ، ورأيت فتاة فى مقتبل العمر تمسح الدرج وقد شمرت عن ساقيها .. ولما رأتني توقفت عن العمل ، ونظرت إلىّ فى سكون فاقتربت منها وسألتها وأنا مفتون بجمالها : ـ أهذا منزل عبد السلام أفندى ..؟ ـ أجل .. ـ أريد أن أقابل زوجته .. ـ أنا زوجته..

فابتسمت وظهر على وجهى الارتباك ، فما كنت أتوقع أن تكون زوجة صاحبى صغيرة وجميلة هكذا .. رأيت أمامى فتاة فوق العشرين بقليل ، خمرية اللون سوداء العينين .. جذابة الملامح إلى حد الفتنة . وعرفتها بنفسى وسلمتها الرسالة .. فأخذتها فى لهفة ثم ردتها إلىّ وهى تضحك وقالت بصوت ناعم : ـ أرجو أن تقرأها لى فأنا لا أعرف القراءة ـ وقرأتها لها فأشرق وجهها وزاد سرورها .. ثم طوت الرسالة وقالت وهى تشير إلى الداخل : ـ تفضل .. ودخلت وجاءتنى بعد قليل بكوب من الليمون وأخذت أحدثها عن البحر ، وعرائس البحر .. حتى أقبل الليل فحييتها وانصرفت وأنا جذلان طروب.

***وبعد أيام التقيت بها عرضا فى السوق ، وكانت معها سيدة وفتاة أصغر منها قليلا . وسلمت علىّ فى بشاشة وقالت : ـ لماذا لم تزرنا ..؟ ـ سأزوركم طبعا ، قبل عودتى إلى المنارة .. ـ وقبل ذلك ..؟ ـ وقبل ذلك .. ! ـ سلم على أمى وأختى .. إنهما قادمتان من بور سعيد لزيارتى .. وقد حدثتهما عنك ..! وسلمت على أمها وأختها ، ومشيت معهن إلى البيت ، وبقيت معهن حتى ساعة الغداء..

وذهبت إلى الإسماعيلية ، وأمضيت فيها أياما .. ورجعت إلى السويس ، وفى أصيل يوم مررت بمنزل زينب زوجة صاحبى لأخبرها بموعد عودتى إلى المنارة حتى أعطيها فرصة لتعد بعض المأكولات لزوجها ، ووجدتها فى البيت وحدها ، كانت أمها وأختها قد سافرتا .. وشعرت وأنا جالس فى الحجرة بالسرور والارتياح .. وهذه مشاعر لم أستطع تعليلها .. وكانت زينب تلبس رداء أزرق بسيط التفصيل .. وقد صففت شعرها وعقدته جدائل فوق ظهرها ، وكانت تعصب رأسها بمنديل أزرق كذلك ، وفى عينيها كحل خفيف ، وعلى خدها الأيمن حسنة . ولما جاءت إلىّ بفنجان من القهوة ، ومددت يدى لأتناوله من يدها ، شممت من جسمها روائح الطيب ، فتنبهت حواسى ، ونظرت إليها وكأننى أراها أمامى لأول مرة .. ولأول مرة أشعر بقلبى يدق وأنا معها فى غرفة واحدة والعرق قد أخذ يتصبب على جبينى!..

ومالت الشمس إلى الغروب ، ونهضت لأنصرف فقالت وهى تنظر إلىّ : ـ لماذا أنت مستعجل ..؟ ـ الليل قد أقبل .. ـ إن هذا أدعى لبقائك لأننى وحدى فى البيت ، فانتظر حتى تأتى خالتى أم اسماعيل .. وبقيت .. وظللنا نتحدث .. حتى مضت فترة من الليل . ووجدت أمامى أنا الشاب القوى الذى يعانى مرارة الحرمان امرأة ناضجة محرومة مثلى .. كان فى نظراتها تكسر ولين

وكان جسمها يروح ويجىء أمامى وهى فى أحسن مجاليها ، فأخذت أنظر إليها ، وأنا مستغرق فيها بحواسى ومشاعرى جميعا ، ونسيت أنها امرأة صاحبى ، نسيت هذا وذكرت أننى وحيد فى قلب الليل مع امرأة أشتهيها من كل قلبى . ودون أن ندرى ما حدث كانت بين ذراعى وكنت أرتوى منها . وغرقنا فى النشوة فلم نحفل بأحد . وأصبحت أقابلها كل يوم..

ولما حان موعد عودتى إلى المنارة حملتنى هدية لزوجها ، وودعتها وفى قلبى جمرات من نار .

وذهبت إلى المنارة وأعطيت الهدية لصاحبى وسألنى عنها ، وكان يتلهف على كل كلمة يسمعها منى .. كان يحبها إلى درجة العبادة .. سألنى عن صحتها وأحوالها ، وأخذت أجيبه على مئات الأسئلة التى أمطرنى بها ، وكان من فرط ولهه يود لو يقبل يدى لأنها لمست يدها ..! وحل موعد عودته فتركنى ورحل .. وكنت فى خلال ذلك أعانى عذاب السعير ، وأتصورها بين ذراعيه فأكاد أجن .. وانتهت أجازته وعاد .. ورأيته يصعد سلم المنارة بعد غيبة ثلاثة شهور .. وكدت أنكره .. فقد تغير .. إذ ظهر على وجهه الشحوب والذبول وحيانى فى فتور .. ووضع متاعه فى جانب من المنارة .. وصعد إلى البرج .. وهو صامت .. وجلست بعد هذا أفكر وأسائل

نفسى .. ما علة تغيره ؟ هل عرف.. ؟ هل علم بكل شىء ..؟ ما أشد جنون المحبين ! إنهم يتصورون أن الناس لاتعرف عنهم شيئا .. وسيرتهم تدور على السنة الناس . إن الحب يعميهم عن ادراك الحقائق.

وكان عليه أن يسهر فى البرج ، وعلىّ أن أنام لأحل محله بعد ذلك .. واستلقيت على الفراش ولكنى لم أنم .. كانت نظراته إلىّ ترعبنى .. وكنت أخافه .. كان أشد منى قوة .. فأغمضت عينى نصف إغماضة وسمعته يهبط السلم .. ويدور فى الغرفة الصغيرة حتى وقف على فراشى ، وتظاهر بأنه يبحث عن شىء وعاد إلى البرج..

وبعد ساعة سمعته يهبط السلم مرة أخرى .. ورأيته يتجه نحوى .. وكانت فى يده قطعة من الحديد .. إنه يود قتلى .. ودون أن نتبادل كلمة واحدة تشابكنا فى عراك دموى ، وظللنا نقتتل حتى لم تبق فينا قدرة على الحركة ، ورحت فى غيبوبة طويلة .. ولما فتحت عينى ونظرت إليه كان الدم يلطخ وجهه ، وكان صدغه قد تهشم من ضربة قاتلة .. فأدركت هول ما حدث وأغمضت عينى..

نمت على الأرض وهو بجوارى فاقد الحراك .. ونظرت إلى السماء فوقى ، وإلى البحر الصاخب من حولى ، وإلى الظلام الذى تضل فيه الأبصار ، واستعرضت فى ذهنى صور حياتى إلى أن التقيت بصاحبى هذا .. وجمعتنى الأقدار معه فى عمل واحد .. وامرأة واحدة!..

وبكيت وماتت فى نفسى كل عواطف البغضاء .. وودت لو أفتديه بحياتى .. وأخذنى بعد قليل ما يشبه الدوار .. ثم فتحت عينى ، وتصورت أن الجثة تتحرك وأنها اقتربت منى .. وكنت مشلولا ولا أستطيع الحركة .. فتملكنى غيظ مستعر ، وجعلت أصر بأسنانى ، وأهذى كالمجنون ، وأصرخ بأعلى صوتى .. ولكن موج البحر كان أعلى من صوتى.

كان يزمجر وكنت أصرخ فيختلط الصوتان معا ويذهبان أباديد .. وظللت ساعة كاملة وأنا فاتح عينى ومعلق بصرى بالجثة .. وقد عجزت عن كل حركة .. وخيل إلىّ أنها انتفخت .. وأن وجهه يزحف عليه النمل .. والهوام ! وازددت كراهية لها ونفورا .. وخطر لى خاطر لماذا لا أدفعها إلى البحر .. وأتخلص من هذا العذاب..

وزحفت بجسمى كما يزحف الثعبان .. وحاولتأن أدفع صاحبى فلم أستطع .. فتمددت فى مكانى وبصرى إلى النجوم .. إن الليل مرتع للهواجس .. فإذا طلعت شمس النهار ذهبت هذه الخواطر المرعبة أباديد.. ولكن متى يطلع الصبح ..؟

لقد كنت أرتعش وأصر بأسنانى ، وأشعر بجفاف حلقى .. ولما صحت بأعلى صوتى كان صوتى قد انقطع .. فأغمضت عينى وأخذت أبكى كالأطفال .. وكنت كلما أغمضت عينى ازداد سمعى حدة .. وخيل إلىّ أننى أسمع صياح مردة فى برج المنارة وعواء ذئاب .. ووضعت أصابعى فى أذنى .. ولكن هيهات كان الصوت قويا ، وكان يجلجل فى البرج.

وارتعشت .. وتصبب العرق وأخذنى الدوار.

ولما فتحت عينى ، كان النور قد غمر الكون .. وظللت طول النهار فى مكانى ، وأنا أتلوى من الألم والعذاب . . وكلما أدرت وجهى عن رفيقى .. عدت برغمى أنظر اليه وأرتعش .. حتى طار صوابى.

ومرت مركب فى المساء .. ولاحظت انطفاء المنارة .. فاقتربت وحملتنا .. هو ميت وأنا أشبه بالموتى.

وسجنت .. وخرجت من السجن .. وذهبت إلى كل مكان لأتلهى وأنسى .. ولكن صورة البحر بأمواجه وأشباحه والمنارة المنطفئة .. والزميل الراقد بجوارى لاتبارح مخيلتى أبدا .. إننى معلق هناك بخيط لايرى..

# رزق من السماء

بقلم محمود البدوي

خرج أحمد من البيت ومعه زوجته أمينة فى مساء يوم الجمعة الماضى لمشاهدة فيلم " الكونتيسة الحافية.."

وكان أحمد يحب أمينة زوجته ويصحبها معه إلى السينما وإلى الأوبرا وإلى حفلات الموسيقى الكلاسيكية وإلى معارض الفن .. وإلى كل ما يتصل بالثقافة العامة .. ليرفه عنها ويوسع مداركها ويجعلها أكثر ادراكا وفهما للحياة.

وكانا سعيدين كزوجين وقد رزقهما الله بغلام واحد جاء بعد يأس .. وكان فى سنته الأولى ذابلا وعليلا أبدا وميؤسا من حياته . فكانت الأم ترفع وجهها إلى السماء وتدعو له.

واقترب مولد النبى .. فنذرت له خروفا توزعه على الفقراء فى كل مولد وشفى الغلام وعاش حتى دخل الروضة.

وكان والداه يحبانه حبا جما ويحبسان نفسيهما فى البيت لملاعبته ولايخرجان إلا بعد أن ينام.

كان لهما كل شىء فى الحياة .. _ ومن سن الرابعة عرف الغلام أن الخروف الذى يذبح فى المولد هو خروفه ، فكان يذهب مع الخادمة ليوزع " اللحم " على الفقراء فى الحى بيتا .. بيتا .. ويشعر بسعادة تامة وبلذة إذا ركب حصانا حقيقيا إو صعد على بساط الريح .. _ وأصبح الغلام يترقب المولد النبوى لأنه عيده .. فيذهب مع والده إلى سوق المطرية ويشترى الخروف .. ويربطه فى غرفة البواب ويقدم له الماء والعلف . ويجلس بجواره ينظر إليه بحنان ويمنع أطفال العمارة من ركوبه .. حتى تجىء ليلة المولد فينام فرحا يحلم بأمتع الأحلام ويستيقظ مع الفجر فيجد والده جالسا بجانب الراديو يستمع إلى ترتيل القرآن فى مسجد السيدة .. من الشيخ شعيشع .. والشيخ عبد الصمد..

وفى الشروق يذبح الخروف وينقلب البيت إلى حركة مستمرة وفرح . ولكن فى هذه السنة لم يذبح الخروف فى المولد كالعادة .. لأن الأسرة كانت فى أيام المولد فى الإسكندرية..

وكان أحمد يود أن يشتريه ويوزعه على الفقراء بمجرد عودته .. ولكن مشاغل الحياة صرفته عن تنفيذ ما اعتزم عليه فنسى أو تعمد النسيان . وخرج الزوجان من السينما .. وكانت الأتوبيسات مزدحمة فركبا " تكسى " إلى البيت.

وكانت الخادمة نائمة فى غرفة ابنهما لتؤنسه .. فلم ترد أمينة ايقاظها وأخذت تعد العشاء . وكان أحمد يلاحظ أن زوجته تصفو نفسها بعد هذه النزهة وتصبح مرحا طروبا .. وتنسى التوافه التى تشغل بال النساء . _ وسألها وهى تخلع ملابس الخروج .. - عجبك الفيلم ؟ - بديع .. بس كنا عاوزين نشوف الراجل ده شكله إيه .. اللى بيجر الكونتيسه إلى الوحل .. _ وضحكت لتوهمه بأنها هازلة ولكنه كان يعرف أنها جادة وأنها تتكلم بلسان المرأة وشعورها الطبيعى . - والحوار .. ما كنش فوق مستوى الجمهور ..؟ - أنت فاكر الجمهور رايح علشان يفهم الحوار ..؟ - أمال علشان آفا جاردنر ؟ - طبعا .. وكفاية يشوفها لابسه المايوه .. وطالعة من البحر .. الله .. الخاتم يا أحمد .. الخاتم ! . - إيه .. مالك زعجتينى ..؟ - الخاتم .. مش فى صباعى .. سقط .. أنا عارفه النهارده الجمعة ولازم .. يحصل حاجة .. - احنا مش فى الجمعة دلوقت .. دورى كويس وبلاش عصبية .. وان راح فداك .. - كان فى صباعى وحاسه بيه لغاية ما نزلت من التاكسى .. وأخذا يبحثان فى كل مكان فى البيت .. ونزل الزوج إلى السلم وبحث فى مدخل العمارة وعلى الرصيف فلم يعثر على شىء .. واغرورقت عينا الزوجة بالدمع وأخذت تصيح : - دا بدل الخروف .. اللى بخلت توزعه على الفقرا السنة دى .. أهو ضاع ثمنه مضروب فى ثلاثة علشان يعجبك .. وأخذ أحمد يهدىء من روعها ولكنها نامت باكية.

وفى الصباح بحثت فى كل مكان عن الخاتم ولكن دون نتيجة . وجلس الزوج فى الضحى يلاعب ابنه فى الشرفة ويستدفىء بشمس الشتاء ولمح وهو جالس رجلا عجوزا يزحف على الرصيف الآخر .. ثم رآه يعبر الطريق ويقترب من بيته .. وعندما اقترب لاحظ أنه يلبس ملابس بالية وفى حالة لاتوصف من التعاسة والفقر والجوع وكان يزحف زحفا وينظر إلى الأرض ليجد كسرة خبز .. ورآه أحمد ينحنى ويلتقط شيئا من الأرض ويرفع وجهه إلى السماء وينظر وقد غمره الفرح وهزه ..

كان هذا الشىء هو خاتم زوجته الضائع.

وهتف أحمد بالخادمة ليقول لها بأن تنزل وتأتى بالخاتم من الرجل قبل أن يبعد.

ولكن الخادمة كانت بعيدة مع سيدتها فى المطبخ فلم تسمع .. فكرر النداء .. وكان فى خلال ذلك ينظر إلى الرجل العجوز ويفكر فى مقدار ما يصيبه من خيبة الأمل والتعاسة .. عندما يأخذ منه هذا الخاتم .. رزقه الذى هبط عليه من السماء .. فكر فى السعادة التى يعيش فيها العجوز فى هذه اللحظة .. وقرر ألايسلبها منه .. وقال لنفسه إن الإنسان يعيش ليعطى السعادة للآخرين لا ليأخذها منهم..

وعندما جاءت الخادمة .. وسألته عما يطلب .. قال لها فى هدوء : - روحى هاتى البدلة من المكوجى .. ولم يشعر بمثل هذه السعادة فى حياته..

# الغجرى

بقلم محمود البدوي

فى سنة ١٩٣٤ ركبت البحر إلى أوربا .. وكان فى السفينة أجناس مختلفة من البشر .. تلاقوا فى صفاء ومودة .. فلم تكن هناك حروب .. وكان الناس قد نسوا ويلات حرب ١٩١٤ لطول ما مر عليها من زمن .. ولم تكن السفينة مزدحمة بالركاب .. رغم أننا أقلعنا فى فصل الصيف .. وهو الفصل الذى يهرع فيه الناس إلى أوربا .. وكان الكساد والرخص يعمان العالم كله .. وكل إنسان فى جيبه القليل من الجنيهات يستطيع أن يسافر كما سافرت .. ورغم ذلك الرخص فإن السفينة لم تكن مكتظه .. وهذا ما جعل المسافر على ظهرها يشعر بالراحة والمتعة .. فالزحام لايريح أحدا..

ولكن فى مدينة " بيريه " فوجئنا بفوج من السياح ينـزل إلى السفينة قبل ساعة الاقلاع .. وكان معظم أفراده من المصريين فى طريقهم إلى الدانوب ، جمعتهم شركة سياحية على هذا النحو .. وبعد أن قضوا أياما فى اليونان ركبوا هذه السفينة.

ولم أكن بطبعى أحب هذه الأفواج ، ولا أسافر فى ركبها .. ولكنهم ركبوا السفينة ، ولم يركبوا القطار فكيف ابتعد عنهم .. واستلفت نظرى شاب على رأس الفوج .. ضخم الجسم قمحى اللون .. حاد النظرات .. يعنى بهندامه .. وينادونه بالأستاذ " شكرى " وكان " شكرى " هذا يحمل آلة تصوير ، ولا يفتأ يصور ويصور .. ومن وقفته الطويلة حول جموع الركاب لاحظت أنه كثير الفضول ومتسلط .. وكانت زوجته مصرية وسمعت اسمها " الهام " .. وكانت شابة نحيفة القوام بيضاء جميلة .. بل آية من آيات الجمال .. وتبدو وادعة وحزينة .. وكنت أغفر له فضوله .. ما دامت تقف بجواره ، وتحاول أن تخفف برقتها من وقع كلماته الغليظة وتسلطه . وكان يرافقهما كأصحاب ، زوجان أجنبيان ، لاعلاقة لهما بالفوج ولكنهما التقيا بشكرى وزوجه فى ربوع اليونان فتصاحبا .. كرفقة سفر .. وهما من فنلندا والزوج والزوجة حسن ونادية .. الاثنان يدرسان فى جامعة واحدة بفنلندا.

وعندما دخلت السفينة حدود تركيا .. تعرفت على الشاب الفنلندى " حسن " وسرنى أنه يعشق الأدب وله اطلاع واسع .. وكان هو وزوجه فى نفس الطابق من السفينة الذى يقيم فيه شكرى والهام .. وفى كمرتين متجاورتين..

وقد نشأت علاقة قوية بين الزوجة المصرية والزوجة الفنلندية .. حتى اننى كنت أشاهدهما معا ، فى كل خطوة أخطوها على ظهر السفينة ، أو فى ممراتها الداخلية والجانبية .. وقد عللت ذلك لجمال المصرية ورقتها .. واتقانها اللغة الفرنسية .. وأن السيدة الفنلندية لم تقع فى الفوج كله على من هو أنضر منها وجها .. وأطيب عشرة .. وعلى من يحدثها عن مصر والشرق بوضوح .. وفى ثقافة واسعة مثل هذه الزوجة.

وفى صباح مبكر ، وقبل الافطار وجدتهما متجاورين ، وتستندان الى الحاجز ، وعيونهما الى البحر..

ولاحظت بعد النظرة المتأنية .. أن السيدة المصرية تكفكف عبراتها .. والفنلندية تخفف عنها الأمر ، بوضع ذراعها كله على كتفها ، كأنها تود احتضانها..

وتكرر مشهد الدموع فى عين " الهام " ولأن وجهها فى جملته يعبر عن الحزن ، فقد رددت ذلك إلى كونها فقدت عزيزا عليها منذ زمن قصير .. ولهذا خرج بها زوجها الى هذه الرحلة لتنسى.

وقد جعلتنى الدموع التى كنت أراها فى عينيها كل صباح ، أشفق عليها ، وأحاول أن اقترب من زوجها " شكرى " لأعرف حقيقتها .. ولكنه كان فى طباعه منفرا ولايشجع أحدا على الاقتراب . وكان يعنى بهندامه وزينته مع أننا فى سفينة ، والأمر لايحتاج لكل هذا التبختر .. ويلوك الكلمات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية .. بمناسبة وغير مناسبة ، كأنه مرشد سياحة.

وكان البحر هادىء الموج والريح طيبة فخرج الركاب من الكباين إلى الشرفات والظهر ، وجلسوا على الكراسى الطويلة والدكك .. وعلى لفات الحبال ، وناموا على أطواق النجاة التى تستعمل فى حالة الطوارىء.

ولم يفكر أحد فى العاصفة ولا فى مخاطر البحر .. وكان الأستاذ " شكرى " يقف وسط حلقات المسافرين متحدثا ، وراسما الخطط للرحلة ، وحوله بعض من يعرفهم من اليهود المصريين والأجانب .. وكان يتردد على محلاتهم فى قلب العاصمة ، ويعرفهم بأسمائهم .. وكانوا يسألونه عن الدردنيل والبسفور وجامع أيا صوفيا ويمازحونه ، وهم يعرفون طباعه من مغالاته فى الوصف ، وكان الجو كله يخيم عليه الحب ، لأن العداء الذى سببته الحروب لم يكن فى قلب مخلوق يسعى لخير البشرية جمعاء.

وكان علينا أن نمضى يومين آخرين فى البحر ، لنصل إلى استانبول .. التى سنمكث فيها ثلاثة أيام متصلة .. لتفرغ السفينة بعض شحناتها التى كانت فى الباطن وتمتلىء بغيرها .. وبعدها نقلع إلى البحر الأسود .. إلى كونستنزا وهى نهاية خط السفينة.

وكان يطيب لنا أنا والشاب الفنلندى " حسن " أن نستمتع بمنظر الغروب فى البحر ، وكانت زوجته مشغولة بصديقتها المصرية " الهام " وتقضى معها معظم الوقت.

وفى جلسة فى مقدمة السفينة سألنى " حسن. "

ـ هل تعرف السيدة الهام ..؟ ـ أبدا .. والتقيت بها لأول مرة معكما .. ـ ولازوجها شكرى ..؟ ـ ولا زوجها شكرى .. ـ لماذا تبدو حزينة وفى عينيها الدموع .. ـ سألت نفسى هذا السؤال .. ولم أهتد إلى جواب .. ـ حاولت أن أعرف السبب من زوجتى الملازمة لها فلم أعرف .. يبدو لى أنه يضربها لأنه لايملك أعصابه حتى وهو يتحدث مع الغرباء..

ـ أبدا لاتفكر فى هذا .. وما أظنه يحدث .. هل تشعر نحوها بالعطف ..؟

ـ قطعا .. وإذا كان لايحبها فلماذا لايسرحها بالمعروف .. ونحن مسلمون ..؟ والطلاق ليس صعبا .. وهما ليسا صغارا .. ـ لو كان السبب الكراهية لطلبت هى الطلاق .. ـ لا أظن هذا .. فهى مسكينة لاحول لها ولاطول..

وشعرت بعد هذا الحديث بالأسف والخجل .. وأخذت أحد النظر فى " شكرى " كلما التقيت به ، لأجد فى سحنته العلة التى تجعله هكذا شاذا متسلطا لايسمع زوجته كلمة حب ، ولا ينظر اليها نظرة عطف .. ولكننى لم استطع الاهتداء إلى شىء ملموس.

ولما بلغنا مدينة " استانبول " شعرنا جميعا بفرحة غامرة ، فقد كان الجمال المحيط بنا فوق مستوى خيالنا .. ودخلنا نحن الخمسة مسجد أيا صوفيا متفرقين..

ورأيت السيدة الهام فى ركن المسجد ، تطيل السجود ، وفى عينيها الدموع .. ولم أر أجمل من عينيها فى هذه الساعة.

وخرجت من المسجد وحدى .. وقضيت فى " استانبول " الأيام الثلاثة منفردا لأنى اخترت ذلك ، لأقطع المدينة طولا وعرضا وأرى فيها كل موضع جمال.

وعدت إلى السفينة فى عصر اليوم الثالث قبل السفر بساعة .. وتحركت السفينة .. وتجمع الركاب على الظهر ، وفى كل الجوانب ، ليشاهدوا البسفور عن قرب.

وسمعت المثل..

ـ من لم ير البسفور لايرى الجنة .. ـ هذا ظلم للفقراء.. والناس عند خالقهم سواسية .. فمن أين لهم المال للسفر .. ـ إذن من يرى البسفور كأنه رأى الجنة .. ـ هذا أحسن .. وابتسمت ، وأنا أسمع هذا الحوار حولى..

ودخلنا البحر الأسود .. وفى صباح يوم مبكر .. رست السفينة على ميناء كونستنزا .. واتفقنا نحن الخمسة على أن نقضى اسبوعا فى مصيف جميل قريب من كونستنزا اشتهر ركن فيه طينى بعلاج الكثير من الأمراض . ووصلنا مصيف كارمن سيلفا بعد الغداء .. واخترنا نزلا صغيرا أشبه بالبيت .. فنزلنا فيه .. وأخذنا نتجول ، واعترضنا الكثير من الغجر ، يعرضون ملابسهم المزركشة المنسوجة باليد .. وفى الصباح التالى انفرد شاب من هؤلاء الغجر " بالهام " واغراها بشراء ثوب جميل النسج فابتاعته منه..

ولما رآه زوجها شكرى سألها عن ثمنه ، وخرج إلى الغجرى مسرعا ليرد له الثوب ويسترد النقود .. وحدثت مشادة بينه وبين الغجرى ، وقال له هذا أنه باع الثوب للسيدة وليس له .. وإن كانت هذه الليات (اللي عملة رومانى ) القليلة تعضله فانه يقدم الثوب للسيدة هدية .. واستشاط شكرى غضبا وصفع الغجرى .. وتحمل الغجرى الصفعة ولم ينبس ومشى وعيناه تقدح نارا . وسمعنا بالخبر ولمنا " شكرى " على تصرفه هذا وحماقته ، وكانت زوجته مرتاعة .. وخشينا على أنفسنا من تجمع الغجر علينا ونحن غرباء فى مصيف صغير .. وقررنا ألا نتجول فى هذه الليلة.

وفى الصباح التالى كنا قد نسينا ما حدث واتجهنا إلى البلاج .. وهو مقسم قسمين .. قسم للنساء على اليمين .. وقسم للرجال على الشمال .. وبينهما حاجز طويل وذلك لأن النساء يسبحن عرايا .. ونزلنا نحن الخمسة فى الماء .. كل فى قسمه .. وكان الرجال منا يجيدون السباحة .. وكان شكرى أمهرنا فأبعد .. وسبحت وراءه ، ولكنى لم أكن فى مثل براعته ، واختلطنا بغيرنا من المصيفين .. ولمحت الغجرى يسبح وحده ، حتى جاوز الحاجز الذى بين الرجال والنساء .. وغاص فى الماء..

وخرجنا نحن الأربعة من الماء فى ساعة الظهر .. ولم يخرج " شكرى " وانتظرناه على الشاطىء ، وكان الغجرى يتجول بيننا حاملا بضاعته على ذراعه .. ولم يبد على سحنته أنه نزل الماء قط .. حتى أننى شككت فيمن أبصرته مثله وأنا أسبح .. وبعد ساعة أبلغنا رجال

الانقاذ بغياب شكرى .. وبحثوا فى الماء فى طول وعرض الشاطىء .. ولما دخل الليل سلطوا الكشافات ولم يهتدوا إلى شىء..

وانتظرنا فى المدينة ثلاثة أيام لتطفو جثته .. إن كان قد غرق .. ولكن خاب فألنا فلم نعثر له على أثر فى الأرض ولا فى الماء.

وكانت زوجته المسكينة فى حالة اغماء وقىء وتكرر منها ذلك .. فطلبت " نادية " أن نستدعى طبيبا لفحصها ، خشية أن تكون حاملا ويضر حزنها الجنين .. وجاء الطبيب ورافقته " نادية " عند الفحص .. ولما خرج الطبيب .. سألتها .. ـ هل تم الفحص ..؟ ـ أجل .. ـ ووجدها حاملا ..؟ ـ وجدها عذراء ..! ولم أنبس .. وأخذت أبحث فى الجدول عن أول قطار مسافر إلى بوخارست..

# الحقيبة

**بقلم محمود البدوي**

دخلنا فى عاصفة عاتية قبل أن نبلغ طوكيو .. وأخذت الطائرة الضخمة تتأرجح وتلعب بها الأنوار .. وكان بجوارى راكب من سنغافورة .. لم يستطع أن يصمد فى كرسيه فأخذه القىء ..
وخشيت أن تصيبنى عدواه .. بعد أن أصبحت المضيفات الثلاث عاجزات عن إسعاف الركاب لكثرة من أصيب منهم بالدوار فى ساعة واحدة .. فتحركت من مكانى إلى أربعة صفوف أمامية فى الدرجة السياحية .. كانت خالية تماما من الركاب..

واسترخيت على الكرسى الطويل .. معلقا عينى بعد أن أغلقت أزرار المصابيح المضاءة فوق رأسى .. وزر مكيف الهواء أيضا .. فقد كنت أود أن أنام .. وأغيب عن وعيى حتى تنجلى العاصفة .. ولقد أفلحت فى هذه المحاولة فعلا وانقضت فترة طويلة وأنا لا أحس بشىء مما يجرى حولى .. ثم فتحت عينى فوجدت المكان قد شغل براكب آخر .. ولعله آثر أن يفعل كما فعلت .. ولكنه لم يكن فى مثل حالى ..كان متيقظا تماما وليس على وجهه أى أثر للإعياء .. ولما رآنى أفتح عينى وأحدق فيه برهة قال بإنجليزية فيها لكنة .. لقد مرت العاصفة..

وأشار إلى اللافتة المضيئة التى تحمل فى مضمونها هذا النبأ .. والتى تعلن فك الحزام الذى يربطنا بالكرسى .. وقدرت من جلسة الرجل وملامح وجهه أنه صينى من هونج كونج أو تاجر من أهل سيام .. ذاهب فى مهمة إلى طوكيو .. ثم ظهر لى من حديثه أنه يابانى من سكان طوكيو نفسها وأنه كان فى مهمة فى الخارج وعاد إلى وطنه.

ولما علم أننى مصرى فى رحلة سياحية إلى طوكيو .. تهلل وجهه ..وقال:

- لقد تخلصتم من الاحتلال الإنجليزى بضربة قوية .. وسنفعل مثلها لنتخلص من الأمريكان ..
- إن شعبكم قوى ولا يمكن أن يرضى بأى احتلال ..
- لقد فرضته علينا الحرب .. وهذا أشد شر فيها .. وانطلقنا فى فنون الأحاديث .. وكلما مرت دقيقة ازداد الرجل مودة لى والفة .. وطلب من المضيفة كأسين من النبيذ .. ثم أخذ يقص علىّ سيرة حياته ويفتح لى من طوايا نفسه .. حتى علمت منه أنه عضو فى جمعية لمقاومة الاحتلال الأمريكى لليابان ، وأنه كان فى مهمة خطيرة ويحمل معه فى هذه اللحظة حقيبة صغيرة .. وفيها أشياء لو ضبطت معه سيعدم..

وسألته:

- أين هى ؟
- هناك على الرف .. وأردف ببساطة :
- هل يمكن أن تحملها عنى .. إنى أنمر فيك مذ ركبنا الطائرة .. ولن يفتشوك فى الجمرك ولن يفتحوا حقائبك اطلاقا ..
- وإذا فتحوها ..
- لن يمسوا منك شعرة .. لنا وسائلنا ..
- ما دامت الحقيبة تساعد على انهاء الاحتلال فى اليابان .. فإنى احملها كجندى متطوع..

فتهلل وجهه أكثر .. وقال بابتهاج :

- هذا ما قدرته .. إنك باسل .. وأعطانى بطاقة فيها العنوان الذى أحمل اليه الحقيبة .. إذا حدث شىء يمنعنا من المقابلة فى بوفيه المطار .. بعد أن تتم جميع الإجراءات .. وطلب كأسين من النبيذ .. وناولنى الحقيبة ولم تكن عليها أية بطاقة فوضعتها بجانبى ببساطة..

والواقع أننى كنت أتصور أن المسألة سهلة .. ولكن لما هبطت الطائرة على الأرض وأمسكت الحقيبة فى يدى شعرت برجفة هزت كيانى كله .. ولم تكن ثقيلة ولكننى أحسست بها تخلع كتفى .. وكان معى حقيبة أكبر منها على الرف ومعطف .. فاضطررت أن أرتدى المعطف مع أنه لم يكن هناك برودة .. لأستطيع أن أحمل الحقيبتين..

ونزل مسيو كوجا أمامى على سلم الطائرة .. ونزلت وراءه .. ولكنه اختفى عن نظرى ..ثم ظهر مرة أخرى فى صالة المطار الكبرى عندما اجتمع جميع الركاب .. وأخذ موظف فى المطار .. ينادى الركاب بأسمائهم وشعرت بالاضطراب الشديد وأنا واقف وحدى .. وقلت لنفسى من يدرى .. لعل الرجل خدعنى بالحديث الوطنى وأشعل فىّ النخوة .. وهو فى الواقع ليس أكثر من مهرب وليس فى الحقيبة سوى مهربات جمركية .. عملة مهربة أو جواهر ..وإذا ضبطت ستكون فضيحة لى .. لقد ألبسنى الرجل التهمة بكل بساطة وهرب.

وظللت فى دوامة عاصفة من الخواطر أكثر من ثلث ساعة .. وأنا جالس فى صالة المطار..

ورأيت أن حركة انجاز أوراق الركاب تتم ببطء ودقة .. مع أننا لم ندخل منطقة الجمرك بعد .. فكيف إذا دخلناها .. وندمت على تسرعى .. وبحثت عن الرجل لأرد له الحقيبة ولكننى لم أجده فقررت أن أتركها .. بجانب الكرسى .. ولكن عندما دخلت من باب الجوازات كانت فى يدى وتركت الأمر للمقادير تفعل بى ما تشاء..

ولما دخلت المنطقة الجمركية بعد إجراءات طويلة معقدة .. وجدت حقائبى كلها قد أخرجت من الطائرة ووضعت داخل الحاجز الجمركى مع حقائب الركاب..

وكان موظفو الجمارك فى الناحية المقابلة لى يفتشون حقائب أخرى .. ولاحظت أنهم يفتشون كل حقيبة تفتيشا دقيقا .. وجاء دورنا .. رفعوا حقائبنا عن الأرض ووضعوها على الطاولة المستديرة .. ولكننى بقيت فى مكانى لم أتحرك .. ظللت بعيدا وعقلى يشتغل بسرعة..

وعندما جاء فوج من الأجانب وقدرت أن فيهم بعض الأمريكان وقفت فى زحمتهم وحقائبى كلها وسط حقائبهم ولاحظت أنهم يفتحون جميع الحقائب ويفتشونها بدقة ويسألون دائما عن السجائر والويسكى .. وهنا أخرجت المفاتيح من جيبى وفتحت جميع الحقائب بما فيها حقيبتى الصغيرة التى كانت فى يدى .. وأبقيت حقيبة الرجل تحت الحاجز الخشبى بين رجلى..

وجاء الموظف وفتش حقيبة من حقائبى فقط ثم شغل بمشادة بين زميل له وأحد الركاب وكان قد وجد فى حقيبته سجائر لم يخطر عنها .. وعلا صياح الراكب وتجمع حوله الركاب ..ولما عاد الموظف إلى مكانه .. نظر إلى حقائبى المفتوحة .. وقال:

- يمكنك أن تغلقها .. ورأيته قد استدار ليختم مشط سجائر وجده فى بعض الحقائب ..

وأخذت أغلق حقائبى .. وأنا أرقبه .. رفعت حقيبة الرجل ووضعتها وسط الحقائب المفتشة دون أن يلحظ ذلك أحد .. وقفز قلبى وأنا أفعل ذلك .. وتصبب العرق .. ولكن لما وجدت أن أحدا لم

يشاهد هذه الحركة طرت من الفرحة .. وسألنى الرجل عندما واجهنى مرة أخرى ..
- كم حقيبة معك .. ؟
- سبعة ..
- وفتشت كلها .. ؟
- أجل ..
- وليس معك سجائر .. ولا ويسكى .. ولا أى شىء ممنوع ..؟
- إطلاقا .. وكان فى أثناء كلامه يضع العلامة على كل حقيبة بالطباشير ثم توقف .. وكأنه ارتاب فى حقيبة الرجل .. فنظر اليها قليلا بامعان .. ثم سألنى :
- وهذه هل فتشت ..؟
- أجل .. هل أفتحها مرة أخرى ..؟
- أظن أنه لا داعى .. ووضع العلامة على الحقيبة بالطباشير..

حدث هذا فى سرعة رهيبة .. وكأنما فك حبل المشنقة عن عنقى .. وتركت الموظف يشير بيده للعمال الذين وضعوا الحقائب كلها على السلم الكهربى .. ليذهب بها سريعا إلى خارج حاجز الجمرك..

واتجهت إلى السلم الذى سيقودنى إلى الخارج وأنا شاعر بفرحة كبرى .. وقبل أن أبلغ آخر درجة .. رأيت كوجا يسير أمامى .. ولكنه لم يكن وحده كان بجانبه اثنان من البوليس الحربى الأمريكى وجنديان يابانيان وكانوا جميعا يحملون المدافع الرشاشة .. وأدركت أنه وقع فى أيديهم .. وأسرعت خلفهم .. حتى رأيتهم يدخلونه سيارة مغلقة .. ومضوا به سريعا..

وشعرت بشىء ثقيل يضغط على قلبى ويكتم أنفاسى .. وعدت إلى الداخل وأنا أخرج من قاعة وأدخل أخرى .. كأنى أدور فى بيت جحا .. حتى وجدت نفسى فى القاعة الكبرى المعدة لراحة المسافرين .. وجلست على كرسى جلدى وأغلقت عينى .. نصف دقيقة ولما فتحتها كنت أنظر بقوة إلى اللوحة المضيئة لمدينة طوكيو والسهام النارية التى تنطلق منها إلى جميع أنحاء العالم .. وأخذت أفكر فيما أفعل بالحقيبة بعد أن قبض على صاحبها بسرعة فائقة .. ورأيت أن ألحق سيارة شركة الطيران قبل أن تتحرك من المطار .. بدلا من ركوب تاكسى إلى الفندق .. وأخرج عمال الشركة حقائبى ووضعوها فى السيارة .. وحملت حقيبة الرجل فى يدى ودخلنا فى المدينة الحالمة ذات الأنوار على الجانبين والسيارات تنطلق كالسهام .. وأنسانى جمال المدينة .. وجمال النساء فى الكومينو .. ونظافة الشوارع .. وبهجتها كل ما يتعلق بالحقيبة .. واخترت غرفة فى الدور السابع فى الفندق لأكون بعيدا عن زحمة النزلاء الذين يتركزون عادة فى الأدوار السفلى .. ولأبعد أيضا عن ضجيج المدينة التى تظل ساهرة إلى الصباح..

وتعشيت فى الفندق وخرجت إلى المدينة أمشى كما أتفق مستعرضا واجهة الحوانيت..

ولم يكن الجو شديد البرودة .. وكنت أرتدى المعطف .. وقد ساعدنى هذا على أن أتجول أكثر وأكثر .. وكان عقلى فى الواقع يشتغل وأنا لا أدرى ويحاول أن يبعدنى عن مكان الحقيبة .. وجذبتنى الأنوار البراقة فى ملهى على شكل سفينة قريبا من محطة شمباسى فاتجهت نحوه وبجوار كشك التذاكر وجدت ثلاث فتيات يرتدين فساتين سواريه وصدرهن العارى يبرز كل مفاتنهن ..وتطلعن إلى وجهى .. ووجدت واحدة منهن تعرف الإنجليزية فشرحت لى نظام السفينة .. وحجزت " كمرة " بألفين فى الدرجة الأولى .. وصعدت مع الفتاة إلى الأدوار العليا ..وفى ممشى السفينة الدائرى .. فتحت لى بابا صغيرا .. وأصبحنا وحيدين فى غرفة صغيرة أنيقة على شكل الكاميرا فى عابرات المحيط..

وكان لابد أن نشرب شيئا وكل كأس بألفين .. وسألت الفتاة عن الشراب الذى ترغبه فرفضت وقالت إنه لاداعى لأن تشرب هى .. وتحت الحاحى قبلت أخيرا .. وطلبنا كأسين من الويسكى .. ولاحظت ساسا بعد أن فرغنا الكأسين .. أنى شارد الذهن .. فسألتنى :
- ما بك ..؟
- لا شىء ..
- ألا أروقك ..؟
- بالعكس أنت فتنة فى النساء .. وكان الموقف الطبيعى يقتضينى أن أعانقها وأشرب من رحيق شفتيها .. ولكننى جلست جامدا ولم تبد منى أية حركة..

ولما حركتنى بسؤالها .. اكتفيت بأن مددت ذراعى الأيمن اليها وطوقتها .. وأخذت أمسح بيدى على ذراعيها .. فاستراحت إلى هذه الحركة وأخذت تديم النظر إلى وجهى الجامد .. فابتسمت وطلبت من الساقية كأسين آخرين.. وفى خلال الشراب حدثتها بصراحة عن الحقيبة وما حدث من القبض على صاحبها فى المطار .. ورأيت سحنتها تتغير .. كأنما أصابتها رجفة .. ثم عادت إلى امتلاك أعصابها وسألتنى :

- فى أى فندق نزلت ..؟
- يوكاهاما .. غرفة ٧٠٣
- إنه بعيد جدا عن هنا ..
- نصف ساعة بالسيارة ..
- لا .. أكثر من ذلك .. اذهب فى الحال وابعد هذه الحقيبة عن غرفتك ..
- وأين أذهب بها ..؟
- أترى هذه الترعة .. القها فيها .. أو فى أى مكان من السهل أن تتخلص منها .. لأن هذا يسبب مشكلة ..
- ربما يكون الرجل مهربا .. وفيها جواهر فضحكت .. وقالت
- لا داعى لأن تمزح .. أسرع وتخلص منها ..
- ماذا تصورت فيها ..
- ديناميت .. خرائط .. تصور معسكرات الأمريكان وأماكن احتلالهم فى طوكيو وغيرها .. أنت سائح مسكين .. وستعدم دون ذنب .. فارتجفت .. وسلمت عليها وهرولت إلى الخارج..

وركبت تاكسى إلى الفندق وقال لى موظف الاستقبال بأدب زائد .. وأنا أتناول منه المفتاح ..

- هل يمكن .. أن تنتظر لحظة يا سيد بدر الدين ..
- لماذا ..؟ وقد أحسست بالعاصفة تقترب - .. الظاهر أنه حدث سوء تفاهم منذ القبض على كوجا فى المطار .. يريدون فقط أن يسألوا الركاب الذين كانوا معه ..
- إن هذا حماقة ..
- إنهم حمقى هؤلاء الأمريكان .. وقلت لنفسى أننى أكثر حماقة لأننى مراقب منذ غادرت المطار والعيون ورائى فى كل خطوة .. وأنا لا أدرى .. وسألته ببلاهة ..
- وكيف عرفوا مكانى.. ؟ فقال ببساطة :
- إن شركة الطيران .. وزعتكم على ثلاث فنادق معروفة .. وأدركت مبلغ حماقتى لأنى ركبت عربة الشركة .. فطوكيو مدينة ضخمة كالمحيط وكنت أستطيع أن أغوص فى أعماقها ولا يعرف أحد مكانى لو لم أركب عربة الشركة وأجعل الخيوط فى أيديهم .. ولمحت ثلاثة رجال فى ملابس مدنية يتقدمون نحوى ببطء .. وكنت أود أن أمرق كالسهم من الباب الدوار وانطلق بأقصى سرعة ولكننى استبشعت هذه الحركة فى فندق كبير كهذا .. وقال لى أطولهم وهو الأمريكى حتما :
- هل يمكن أن نلقى نظرة على غرفتك ..؟ فاستبسلت وسألته بصوت قوى ضخم فيه لهجة الاستنكار ..
- لماذا ..؟
- إن هناك حقيبة مغلوطة فلتت من المطار .. وفى تلك اللحظة كان من السهل علىّ جدا أن أقتل أى واحد منهم لو كان معى سلاح .. ومشينا صامتين إلى المصعد .. وفى الطرقة الطويلة تقدمتهم إلى غرفتى .. وأعطيت فتاة لطيفة من عاملات الفندق المفتاح لتفتح لهم الباب .. لأتفادى رعشة يدى وأنا أدير القفل .. وفتحت الفتاة الباب ودخلوا ودخلت معهم وأنا أحس بقلبى قد توقف عن الخفقان ..وعندما توسطت الغرفة انتابنى احساس من البلادة وفقدان الحساسية عجبت له وأدركت أنه نفس الاحساس الذى ينتاب من يصعد سلم المشنقة .. ولكن عندما وقع نظرى على الحقائب عاد إلى الإحساس بالموقف أشد وأعظم واضطربت جدا .. ثم كادت أن تفلت من فمى صرخة مدوية صادرة من الأعماق .. فقد اختفت حقيبة الرجل من الموضع الذى وضعتها فيه .. وبحثوا فى كل ركن فلم يجدوا سوى حقائبى .. وفتحتها جميعا وجعلتها تحت أنظارهم وحيوا وانصرفوا .. وودعتهم على باب الغرفة مزهوا .. وجلست بعد أن ذهبوا أستريح وأشرب القهوة وأنا أفكر فى الملاك الذى طار بالحقيبة فى اللحظة الحاسمة .. ونمت نوما عميقا ****** .. وفى الصباح خرجت أتجول فى المدينة وقد كف ذهنى عن التفكير فى اختفاء الحقيبة وقد عللته بأى سبب ..ربما تكون ادارة الفندق قد عرفت الحقيبة لأنها الوحيدة التى لاتحمل بطاقتى فانتزعتها من الحقائب بسهولة وخلصتنى من شرها .. ونسيت الأمر كلية ****** .. وفى الليل ذهبت إلى ملهى السفينة .. لأرى ساسا .. وقالت وأنا داخل عليها وقد أشرق وجهها ..

- جئت مرة أخرى ..
- بالطبع ..
- لماذا ..؟
- لأنى أحبك ..
- أوه ما أكثر ما سمعت هذا الكلام .. ولماذا تحبنى ..
- لأنك جميلة ..
- ما أكثر الجميلات فى طوكيو ..
- الواقع أننى عاجز عن التعبير .. لايوجد سبب ملموس لحبى .. هناك ما هو أعظم من الجمال ومن الصفاء اللذين فيك ..
- هذا أحسن .. والمهم هل عثروا على الحقيبة ..؟
- ابدا .. لقد اختفت من الغرفة ..
- اختفت .. ؟ وضحكت بخبث .. وعلمت منها ما حدث .. خشيت ألا أصل إلى الفندق فى الوقت المناسب .. فاتصلت فى الحال تليفونيا بالطابق السابع الذى فيه غرفتى .. وكانت تعرف هناك فتاة من العاملات تدعى نيدا وحدثتها بأمر الحقيبة وطلبت منها أن تخرجها من الغرفة فى الحال .. وكان من السهل أن تستدل نيدا على الحقيبة لأنها الحقيبة الوحيدة التى لا تحمل بطاقة وعليها كتابة باليابانية فأخرجتها فى الحال ..
- وأين هى الحقيبة الآن ..؟
- فى مكان ما ..
- هل عرفت أنهم فتشوا غرفتي .. ؟
- أجل .. وكنت أقدر هذا ولذلك أخفيت الحقيبة ..
- إن هذا عملعظيملنأنساه لك ..
- لاداعى لمثل هذا الكلام .. ونظرت إلىّ فاحتضنتها .. وأنا أقول ..
- لابد أن أحمل الحقيبة إلى العنوان الذى تركه لى الرجل ..
- ليس من الضرورى الآن انتظر اسبوعا ..
- لابد من هذا سريعا ..
- انتظر اسبوعا .. وسأذهب معك .. ووافقتها على ذلك .. ****** ومر اسبوع .. واتفقنا على أن نتقابل فى محطة من محطات المترو الذى تحت الأرض .. وتكون معها الحقيبة .. ونركب من هناك إلى المكان الذى عينه لىّ الرجل .. وفى الموعد المحدد انتظرتها .. وجاءت رشيقة جميلة وبيدها الحقيبة وأخذتها منها .. وذهبنا نضع بضعة ينات فى الآلة الأتوماتيكية .. وتناولت نيدا التذكرتين .. وفى أثناء دورانى فى فناء المحطة المسقوف رأيت رجلا عرفته من عينه وكان هو كوجا بعينه وكان يرتدى معطفا سميكا ويضع على عينيه منظارا أسود ..وبيده عصا وعلى رأسه قبعة عريضة .. وكان مشوش الهندام غير حليق على غير ما عهدته فى الطائرة .. وبحركة سريعة تناول منى الحقيبة وشد على يدى وهو يقول :
- كنت أعرف أنك ستأتى بها .. إنك شجاع .. لقد أعدت إلى قلبى .. وأقبل المترو .. فأخذها ومضى..

وقلت لساسا وأنا أصعد بها سلم المحطة ..
- والآن أين نذهب ..؟
- كما تحب ..
- هل تذهبين معى إلى الفندق لنشكر نيدا على الأقل .. ؟
- فكرة رائعة .. وفى شارع جنزا رأيت فى كشك صغير صورة كوجا .. فى صحف المساء وكان تحتها نبأ هروب بخط كبير .. ولما رأت ساسا الصورة ضحكت .. وضغطت على يدى..

هبطت الطائرة فى مطار " كاى تاك " بمدينة هونج كونج والصبح يتنفس وكان المطار مزدحما للغاية بالركاب ، لأن الطائرات جميعها تتوقف فى الليل وتعمل بالنهار بسبب وجود الجبال.

وخرجت منشرح الصدر نشطا لحسن الاستقبال الذى لقيته فى كل مكان ..فى الجوازات والاجراءات الصحية حتى نسيت مرض القلب . واستقبلنى على الباب حشد من فتيان الفنادق ومكاتب السياحة والمحلات يوزعون البطاقات على القادمين . وتناولت كل ما تقدم لى منها ووضعته فى جيبى.

ورأيت قبل أن أخرج إلى المدينة أن أجلس أولا فى الكافتريا " ملهى المطار " واختار من هذه البطاقات الفندق الذى سأنزل فيه . وكان المقهى مزدحما بالمسافرين والقادمين كالعادة فى مثل هذه الساعة من الصباح ، ويصبح من المألوف أن يشاركك مسافر فى مائدتك الصغيرة يحتسى القهوة أو الشاى ، وينهض سريعا ليلحق بطائرته أو يخرج إلى المدينة.

واخترت مائدة قريبة من الباب وبجانبى حقيبة اليد الصغيرة ، وحقيبة الملابس الوحيدة ، وطلبت قهوة وفطيرة وأخذت اتطلع إلى البطاقات ، ورأيت أن أصرف النظر هذه المرة عن فنادق " كولون " لأنى نزلت فيها فى مرات سابقة ، وأن أغير المنظر والمكان وأختار فندقا فى هونج كونج ذاتها لأستريح من حركة الانتقال بالباخرة كل صباح من كولون إلى هونج كونج ، ولأعيش فى قلب المدينة العجيبة بكل مشاعرى ، واكتشف أسرارها ما استطعت فى مدى الأيام القليلة التى سأمكثها.

واخترت الفندق بالفعل من بطاقة من هذه البطاقات بعد تمعن فى الاسم والسعر المحدد للغرفة وكان فى شارع " دى فو."

ولما رفعت رأسى عن البطاقة الفيت " الكافتريا " قد امتلأت عن آخرها ، وأصبح يجلس بجانبى وحولى أناس من كل الأجناس ومعهم حقائبهم مثلى موضوعة على الأرض بجانب الموائد ، ومنهم من انشغل بكتابة البطاقات التذكارية ، أو وقف يصور منظر الطبيعة من الشرفة الخارجية حيثما تدور.

وخرجت من الكافتريا ممسكا كل حقيبة بيد ، وكانت الشمس ترسل أول أشعتها على المدينة والجو نديا لطيفا والصيف كله يتقلص وكنا فى نهاية أيامه.

ووجدت فى الطريق تاكسيا من التى تستعمل لنفر واحد ، فاستوقفته وقلت للسائق قبل أن أركب..

- ليس معى دولارات هونج كونجى وسأعطيك دولارا أمريكيا واحدا لتوصلنى إلى مرسى الباخرة . وكنت أعرف المسافة وأقدرها .. فرد السائق فى لطف :
- تفضل .. والدولار الأمريكى يكفى وأكثر مما سيحصيه العداد . وركبت وكان يسير فى سرعة .. والمدينة أخذت تتنفس وتتحرك بكل مرافقها والمارة يسرعون إلى عملهم فى خفة عجيبة .. وسألته فى موقف الإشارات بعد أن شاهدت صورة لمسز تاتشر فى صحيفة جنوب الصين .
- المسز تاتشر هنا ..؟
- كانت هنا .. وسافرت .. رجعت إلى بلادها .. قال هذا دون أن يلتفت إلى ناحيتى
- وسترجعون إلى الصين الأم بعد ١٥ سنة ؟
- فى هذا الخير .. ومن الصينى الذى يرضى بالاستعمار ؟
- ألا تخاف من تغير النظام ؟
- المهم أن تبقى لى عربتى هذه ، وعندما يكون الحكم عادلا وفى صرامة وحزم ، فإنه يرضى كل إنسان وابتسم وتلفت وبدت سنته الذهبية تلمع من خلال أسنانه الصفراء من فعل التبغ

وكان فى بداية الشيخوخة ولكنه ما زال قويا حاد البصر متمالكا لأعصابه وجسمه ، وهو جالس لا يدل جسمه على طول ولا سمنة وقلت فى نفسى وهو يشق طريقه فى قلب " كولون " وعيناى إلى العمارات والمتاجر وحركة الناس فى الطريق.

ستظل هونج كونج هى هونج كونج سواء انضمت إلى الصين الأم أم ظلت مسلوخة عنها ، لقد أخذت طابع المدينة الفريدة .. إن أناسها أصبحوا من تكوين آخر وطينة أخرى .. حب المنافسة ، وفى ظهرهم اليابان بكل ثقلها فى الصناعة وتقدم العلم والحركة السريعة والنظام الدقيق جعلهم في وضع آخر .. ثم حرية الانطلاق خلقت منهم جبابرة فى هذه الميناء ، أنظر إلى البضائع ، أنظر إلى الصناعات الصغيرة التى فى طريقها إلى التطور السريع لتصبح ثقيلة كما تصنع اليابان .. أنظر إلى حركة الناس فى الشوارع ، ولهفتهم على العمل وتقليد الأشياء أولا ثم اختراع الجديد.

هذا كله مبهج ومريح للقلب .. ونسيت تعبى .. _ وسألنى السائق :

- اخترت الفندق ..؟
- نعم .. وبلغنا كوبرى الباخرة وأخرجت له الدولار ، وشكرنى وتحرك بسيارته . ثم وجدته يتوقف وينادى بالإنجليزية ، ونزل من سيارته وقدم نحوى سريعا قبل أن أهبط من الكوبرى إلى الباخرة _ وقال وهو يلهث :
- هل هذا دولار ؟
- نعم ..
- انه عشرة دولارات ، فحاذر إن الدولار من حجم العشرة فى العملة الأمريكية ، فحاذر من هذا الخطأ وإلا سيفرغ جيبك فى يوم واحد !! ونظرت إلى الرجل الفقير فى اكبار .. إنسان لا تربطنى به معرفة ولا صلة ، أكثر من صلة راكب غريب بسائق سيارة أجرة ، رجل فقير ..يخاف أن ينضم موطنه إلى الصين فتؤخذ منه عربته الصغيرة المهالكة التى يعيش منها وتصبح من عربات الدولة.

رجل يفعل هذا ، وفى حيطان الميناء وفى الكوبرى وفى البواخر وفى المحطات ، لافتات تحذر من النشالين ، لافتات فى كل مكان بحروف بارزة كبيرة بالإنجليزية.

إن كل ما يحرص عليه هذا السائق هو كيانه الصغير وأسرته ، إن كانت له أسرة ، لو كان هذا الرجل طامعا فى المال لطوى الورقة كما يطويها غيره من لصوص المال ، ومن الذين لايتورعون فى سبيل الحصول على المال من فعل كل شىء وارتكاب كل ذنب من السرقة والقتل والنهب والخداع واستضعاف الضعيف وزيف الحقائق والتمويه على الناس.

كم أذل المال قوما كانوا كبارا فى نظر الناس وشامخين فطوى صفحتهم فى لحظات ، ومرغهم فى الوحل ، وطمس رؤوسهم فى التراب . ودارت كل هذه الخواطر فى رأسى والباخرة تتحرك إلى هونج كونج وصورة الرجل الفقير مرفوعة فوق رأسى .. وبجانبها اللافتات بالخط العريض .. حذار من النشالين.

هل هو تمويه من الإستعمار الإنجليزى .. لتشويه وجه المواطن الصينى فى هونج كونج أم هو حقيقه ؟ الواقع أنه حقيقه إلى حد ما ، ففى هونج كونج رقيق أبيض ودعارة ، ونشالون لا يشق لهم غبار ، وأصحاب حيل لا نظير لمثلهم فى العالم.

ولكن فى هونج كونج بجانب الصينيين ، غرباء استوطنوا فيها من كل الأجناس فى الأرض .. من الإنجليز والأمريكان والهنود ثم قوم من اليمن والباكستان وغرب أوربا وشرقها.

فلا مانع من التحذير من النشالين الخفاف والثقال عند كل تجمع وحشد ، لا مانع أبدا ، وذلك أول واجبات البوليس فى المدينة.

وخرجت من الميناء إلى الفندق فى عربة ركشا واخترت غرفة فى الطابق الخامس.

ولم يستغرق الانتقال من المطار إلى الفندق إلا القليل من الوقت ، ولهذا لم أشعر بأى تعب فى القلب ، ولشوقى إلى المدينة قررت النزول اليها بعد أن احلق ذقنى وآخذ حماما سريعا .

وتناولت حقيبة اليد لأخرج منها أشياء صغيرة كأدوات الحلاقة وزجاجة الكولونيا . ولما فتحت الحقيبة حدقت فيها مشدوها وجدت أنها ليست حقيبتى ، وبها أشياء قليلة لا تخصنى ولا تمت لى بأية صلة ولا شىء فيها يدل على صاحبها.

وكان حجم الحقيبة وطولها وعرضها ولونها مثل حقيبتى تماما .. وهى ليست من حقائب اليد التى توزعها شركات الطيران على مسافريها وعليها اسمها كإعلان ، لا إنها ليست من هذا الصنف من الحقائب .. وإنما هى حقيبة يد من التى تباع فى كل الأسواق الأوربية بنية غامقة بقفل واحد يفتح ويغلق اتوماتيكيا بضغط خفيف من جانب.

وكنت قد اشتريت واحدة من هذا الصنف وأصبحت احملها فى كل رحلة لأنها سهلة الاستعمال وخفيفة ، ولا يسع باطنها إلا أقل الأشياء .. وبمجرد علمى أن الحقيبة ليست حقيبتى اعترتنى رجفة .. وازدادت الرجفة إلى هلع زلزل أعصابى .. وأوجع قلبى ، ولما وجدت فى الحقيبة كيسا جلديا محشوا بالدولارات .. وكل انسان يفرح لمنظر الدولارات وهو فى رحلة .. ولكن منظرها أفزعنى .. وجعلنى ارتعش .. وأخرجتها من الكيس وكانت ضخمة كبيرة وظاهرة للعيان .. ولم يشأ صاحبها أن يخفيها بأية وسيلة من وسائل الاخفاء وحيله .. كأن يطويها فى الأوراق أو يضعها فى محفظة كبيرة مع أشياء أخرى ، لم يفعل هذا .. بل تركها ظاهرة بمجرد أول نظرة ولمسه..

كانت صورة لنكولن تسر الناظر .. الفلاح العصامى المتفرد فى الطباع والقريب جدا ، والذى يحمل صفات أعظم رجالنا .. بعد النبى .. عمر ابن الخطاب .. والقياس مع الفارق ..فعمر كان أعظم لاعتبارات كثيرة .. ولكن فى العدل والنظام وصرامة الحكم وبساطة العيش ، والاغتيال من يدى أفاقين اشتركا ، واشتركا بما يذهل أمام التاريخ ، لنكولن الفلاح العصامى محرر العبيد برزت صورته فى نفسى كما برزت فى الدولارات الأمريكية ولم تبرز بعده صورة ، ولكنى كمصرى استرجعت صورة " أيزنهاور " الذى أعطى لليهود فى اسرائيل لطمة قاسية بعد عدوان ١٩٥٦ ووضعهم فى حجمهم الطبيعى.

نظرت إلى الدولارات طويلا ولم افكر فى عدها ثم أعدتها إلى مكانها من الكيس الجلدى وذهنى يشتغل بسرعة ، ولكن يجب علىّ ألا أتصرف بغباء وتهور ، فهذه الدولارات مطمع للكثيرين فيجب أن أتحقق أولا بعد كل خطوة وأتحقق بحذر وتأن لأنها أمانة وضعها القدر فى عنقى.

حقيبة اليد هذه حملها عامل المصعد فى الفندق مع حقيبتى الأخرى كما حملتها أنا من الكافتريا فى المطار إلى التاكسى ثم إلى الباخرة ، فهل أخطأ عامل المصعد وحمل حقيبة نازل من نزلاء الفندق بدل حقيبتى لتصادف وجود حقائب كثيرة فى الفندق وأنا داخل ..؟

أم أن الخطأ من جانبى فى الكافتريا ، فقد حملت حقيبة مسافر آخر بدل حقيبتى وأنا لا أدرى لما بين الحقيبتين من تشابه كبير وتطابق تام فى اللون والحجم.

إن كان الخطأ قد حدث فى الفندق .. فسيكون السؤال من جانبهم وسيأتى العامل ويتدارك الخطأ ، أما أنا فلا أحدثهم بشىء ، لأنى لم أختبر الفندق بعد ولا أعرف مقدار ما هم فيه من أمانة.

ولما لم يسألنى أحد .. تناولت الحقيبة بيدى .. ونزلت إلى بهو الفندق .. وتحادثت مع الشاب العامل فى الاستقبال وأنا أقول لنفسى إن كان هناك خطأ فسيذكره منظر الحقيبة فى يدى بكل أمر..

ولكنه لم يحدثنى عن شىء متعلق بالحقيبة ، ولما عرف أني خارج للتسوق ، دلنى على متجرين فى شارع " جلوستر رود " وأدركت بعد هذا أن الخطأ حدث فى الكافتريا .. فأسرعت اليها .. وفى ذهنى خاطر أن الذى حمل حقيبتى لابد أنه أدرك الخطأ مثلى ورجع إلى الكافتريا كما رجعت.

وفى الكافتريا دخلت وأنا أظهر الحقيبة لكل العيون وجلست إلى نفس المنضدة ، وطلبت زجاجة عصير ، وكانت الحقيبة بجانبى فرأيت أن أضعها على المنضدة لتظهر أكثر ويراها الجرسون إن كان قد سأله أحد عنها من قبل.

وطال جلوسى ، ولم يأت أحد ، ولم يسألنى شخص ، ورأيت أن من حسن التصرف والصواب ألا أتقدم وأكشف الأمر فمن الذى يرفض أخذ دولارات هبطت عليه من السماء . ولما يئست وأحسست بالتعب ووجع القلب ، تغير شعورى من الحرص عليها ، إلى تركها للمقادير لأنها عذبتنى ، ورأيت أن أنهض وأترك الحقيبة فى مكانها ، وتسللت إلى الخارج بعد أن تركتها على المنضدة . ولكنى قبل أن أركب التاكسى وجدت جرسون الكافتريا يسرع ورائى وبيده الحقيبة.

وشكرته وأنا فى حالة غيظ ، ولكنى ناولته دولارا هونج كونجى لأمانته.

وعدت إلى مدينة هونج كونج ، والمدينة العجيبة قد فتحت كل أبوابها ، شوارعها الطويلة الضيقة تموج بالناس .. من كل الأجناس .. ذاهبين وراجعين ومتطلعين إلى اللافتات الكبيرة والصغيرة التى تغطى كل الحوانيت بالأحرف الكبيرة البارزة وباللغة الصينية فى الأعم والإنجليزية فى القليل .. حروف ضخمة تسد عليك الطريق والعيون زائغة من كثرة البضائع المعروضة ورخص أثمانها وتنوع أشكالها .. إن كل صناعات الدنيا تصب هنا بجانب صناعتهم .. إنهم لا يضعون قيودا على شىء يصنعه أى إنسان . كان الترام من الطابقين يتحرك أمامى فى الشارع كما كانت عربة الركشا .. وكانت السيارات .. ولكنى لم أركب أيا منها ومشيت على رجلى شبه حالم ، ونسيت تعبى ، ونسيت حقيبة اليد بيدى اليمنى ، نسيتها وأنا أغوص فى قلب المدينة حتى وصلت إلى المطاعم الصغيرة فى صف واحد التى تبيع الكرشة التى يسبح فيها لحم البقر!!

واشتاقت نفسى إلى أكلة صينية ! وإلى الذهاب الى سوق الخضار الكبير الذى يفرغ من كل ما فيه فى الليل ، ويغسل أرضه وسمائه بالماء المغلى والصابون ويعقم ويطهر!!

وإلى الذهاب إلى حديقة النمر وركوب عربة الركشا والتنزه فى الغابة وإلى التوجه إلى الميناء ومشاهدة السفن العملاقة وهى تفرغ شحناتها من البضائع وحولها الرافعات تدور وتجلجل.

كما اشتاقت نفسى إلى دخول السينما فى حفلات النهار بعد أن شاهدت فى الشارع صور جارى كوبر وجون واين ولى ملفن العباقرة وعلى رأسهم كوبر الذين ذهبوا ولم يخلفهم أحد.

كما تقت إلى التجول فى أرجاء المحلات الكبيرة التى اشتهرت بها هونج كونج وإلى دخول المكتبات واستعراض صفوف الكتب . وتذكرت أن من المحتم علىَّ أن افعل كل هذا قبل سفرى فى نهاية الأسبوع إلى بكين ، ويجب أن أسير على جدول ينظم أيامى المقبلة وقبل كل شىء أن أرجع الآن حقيبة اليد إلى الفندق.

وتركت الحقيبة فى الفندق وخرجت أتجول فى المدينة ، زرت كل الأمكنة التى أحبها . وتغديت وبعد الغداء نمت أكثر من ساعة لأريح أعصابى وقلبى .. وخرجت فى الليل إلى المدينة التى تتلألأ بكل الأنوار .. الأنوار البنفسجية والفسفورية وألوان الزمرد والياقوت ، وبريق اللؤلؤ وشعاع الماس . كل شىء يتحرك فى أمواج وأمواج.

ودخلت حى " منشاى " حى الملاهى والمسارح ، وسرت فيه بكل طوله وعرضه.

وفجأة برزت أمامى لافتة ضخمة عن عراف من العرافين ، وكانت اللافتة بحروف كبيرة وعليها رسومات ، بلورة كبيرة تكشف الغيب !! ومضيئة بالأنوار القوية وتشير إلى مدخل ضيق يفضى إلى صاحبها.

ودخلت فى ضرب لا نهاية لطوله ، على جوانبه الحوانيت الصغيرة التى تبيع اللؤلؤ .. وتماثيل الخزف والنحاس لبوذا .. والعقود وقناديل الزيت والصور والرسوم لكبار الرسامين والمصورين ، والقداحات .. والأقلام .. والمحابر .. وعقود الماس ، شاهدت كل هذا وأنا أتحرك فى بطء وهلع

إلى العراف وكان بابه فى نهاية الدرب .. وعلى الباب حصيرة من عقود الخزف والزجاج تتموج بالكهرباء ، ولا حس ولا صوت.

وحركت الحصيرة ودخلت ، وطالعنى ما يشبه الجب ووجه رجل سمين ضليع حاد النظرات ، تربع على حشية حمراء قامت على كرسى مضلع من الأبنوس المطعم بأصداف البحر ، ولا سند له ، وأمامه بلورة كبيرة مستطيلة مستقيمة الزوايا كشاشة التليفزيون تتلون بكل الوان قوس قزح ولكنها ثابتة.

وعن يساره شىء لم أشاهده وأنا داخل لقلة الضوء وتعمد خفوته ليضفى جو الرهبة على المكان ، ويتكامل الموقف ، عن يساره فتاة جميلة فى عمر الزهور من أنضر وأجمل وجوه الصينيات ، بضمة وشرطة فى العين ، وارتخاء فى الجفن وبسمة على الشفاة تذيب القلوب الصلدة.

لعلها سكرتيرته أو مترجمته فهو لايتحدث إلا الصينية عن عمد أو تظاهر. وقلت للفتاة بالإنجليزية عن غرضى من الزيارة .. ولكن على صورة أخرى .. قلت لها إن حقيبة يدى سرقت فى صباح اليوم وأريد أن أعرف السارق والمكان الذى سرقت فيه.

قالت برقة : - عشرون دولارا .. واسترح كما أنت .. فأخرجت عشرين دولارا هونج كونجى .. وجلست على كرسى أمام المرآة كما أشارت لى وقلبى ينبض .. وكل جوارحى تنتفض .. فقد خيل إلى أن كل شىء يدور فى الجب مع انقطاع النور وتسلط العتمة .. وسمعت صوت العراف الأجش يقول ما يشبه التعاويذ بالصينية ، ويترنم بنغم كرنين الأجراس .. ثم خفت وانقطع صوته .. وخيم سكون الموت .. وسمعت صوت الفتاة .. فتنبهت وأخذت أنظر إلى المرآة..

وظهرت الكافتريا فى المطار .. ومن كان فيها من المسافرين كما رأيتهم فى الصباح .. ظهروا فى حجم صغير ولكن ملامحهم وسحنهم واضحة .. وظهرت مائدتى ومن كان حولى..

ثم ظهر شخص طويل ببدلة كحلية ، كان جالسا إلى جانبى ومعه سيدة وطفل .. ونهض وتناول حقيبتى .. بدل حقيبته وأسرع إلى الباب . وصرخت .. وأضيئت الأنوار .. وسمعت ضحكة الفتاة وسألتنى:

-لا ترع .. هل عرفته ؟

- وكيف أعرف .. والرجل كسمكة فى بحر ..؟
- ولكنه من ركاب طائرتك ..
- أبدا ما أحسبه منهم ..
- ستعرفه .. وتهتدى اليه .. إذا أبلغت البوليس بأوصافه كما شاهدتها ..
- هذا ظنك ..؟
- أجل ..! وكان العراف يحدق فى وجهى وعلى فمه ابتسامة .. ودهاء .. لقد انتصر.. وكشف الأسرار.

لكنى كنت فى حالة ذهول .. هل هى لعبة شيطانية .. والرجل فى إمكانه عرض صورة للمطار وهو يعرف أنى كنت على سفر .. ولكن الحركة هناك .. ونفس سحنة الشخص المجاور لمائدتى هذا كله أذهلنى .. ولم أستطع تحمل الصدمة وأنا أحمل علة القلب .. وأخذنى ما يشبه الدوار وظللت فى مكانى وأدركت الفتاة حالى عندما رأت العرق يتفصد من جبهتى.

وتناولت الفتاة ذراعى ، وأراحتنى على حشية فى غرفة مجاورة .. ورأيت أن من قلة الذوق أن أشغل المكان .. فتحاملت على نفسى وهبطت إلى الشارع .. وأنوار المدينة تتلألأ ..
وتحاشيت الجموع ما أمكن . وفى شارع " كونات رود " وجدت ملهى فدخلته وطلبت زجاجة من الأستاوت .. وأراحتنى بعض الشىء ، وجاءت فتاة وجلست بجانبى فعاملتها بلطف .. وأدركت هى عدم رغبتى فى مجالستها فنهضت ، وتركتنى وحدى.

وكانت الموسيقى الصينية هادئة تريح النفس والأعصاب .. والأنوار خافتة .. وشاهدت رقصات صينية جميلة .. وبعد الرقص جاءت العاب بهلوانية ، فغادرت الملهى إلى الفندق وأنا أشعر

بالتعب وألم القلب ..!! وسقطت وأنا أخرج من المصعد فى الجناح الذى به غرفتى . ولما فتحت عينى وجدت نفسى على سريرى وبجانبى سيدة .. وأنا أعرف أن الصينيين بطبعهم الشرقى لا يشغلون الفتيات بالليل فى الفنادق.

وكان الطبيب الذى جاءوا به بعد سقوطى لا يزال فى الغرفة ، وحيانى بلطف وقال:

-لاتشغل نفسك ، أزمة خفيفة ومرت بسلام والفضل لصاحب الفندق الذى استدعانى على الفور .. ولهذه السيدة الكريمة جارتك .. التى كانت أول من شاهدك فى لحظة الإعياء . وأشار إلى سيدة تقف بجانبه وكانت هى التى رأيتها على باب المصعد ، وحسبتها من فتيات الفندق . وشكرتها بعينى وأنا صامت .. وحدثتها عن أجر الطبيب ورغبتى فى سداده . فقالت برقة :

- الأجر سيضاف إلى حسابك فى الفندق .. وهناك ممرضة ستأتى بعد ساعة ، وتعطيك حقنة ، والأحسن أن تظل صاحيا ..!! فقلت فى نفسى إن من يتطلع إلى جمال وجهك سيظل صاحيا إلى آخر عمره .. خشية ألا تشرب روحه من هذا الجمال . وحدثتنى أنها فى الغرفة المجاورة لغرفتى ، وجاءت قبلى بيوم واحد لتقضى فى هونج كونج بضعة أيام بعد بانكوك .. ونيودلهى .. وأنها سويدية وتشتغل مدرسة فى لندن منذ أربع سنوات .. وكانت متزوجة ولها بنت فى الثامنة عشرة من عمرها ، تزورها من وقت لآخر فى السويد ، والبنت فى رعاية جدها . حدثتنى عن كل هذا بسرعة وبصراحة الأوربية من الشمال كأنى أعرفها من سنين .
- وقلت لها : بنت فى الثامنة عشرة .. وأنت فى العشرين ، أليس هذا بغريب ؟ فضحكت بقلب طروب .. ونغمت :
- هل أنا صغيرة هكذا .. حقا ؟
- أجل .. ولا أحد يمكن أن يعطيك أكثر من هذه السن .. وكان وجهها الأبيض الجميل البديع القسمات يضىء ، وعيناها الزرقاوان تشعان ببريق الزمرد ، وكنت فى حالة من المرض لاتجعلنى أزيد من إطرائى..

وجاءت لى بكل علاجات القلب التى كتبها الطبيب .. وتحركت وراحت وجاءت فى خفة بنت العشرين حقا.

ولما علمت أننى مصرى واسمى " فتحى " قالت لى أنها التقت بشاب مصرى اسمه " فتحى " وهى تدرس فى جامعة اكسفورد ، وكان يمكن أن تتزوجه .. ويتغير مسار حياتها .. لولا أن وضع القدر فى طريقها هذا الشاب المجرى الذى تزوجته بعد رحلة فى الدانوب .. وخلفت منه البنت الوحيدة .. ثم انفصلا.. ومن وقتها وهى سائحة فى كل الأجازات . كانت ترتدى بدلة الرحلات .. بنطلونا بنيا وبلوزة صوفية داكنة وتركت شعرها المقصوص على طبيعته .. وكانت أسنانها فى بياض العاج .. لولا أثر السيجارة التى أطفأتها وهى فى حجرتى حتى لا تؤذينى .. وذهبت إلى غرفتها وعادت تحمل زجاجة وهى باسمة .. وقالت :

- ستشرب معى ..
- آسف ممنوع ..
- بحكم الدين ..؟ فأشرت إلى قلبى .. فقالت بنغمة حبيبة :
- إنى أحاول أن أنسيك هذا وليس فى عينيك مرض لقلبك .. والعين لا تكذب ..
- ولكنى أحس به ..
- إنسه .. وتناولت يدى ..
- إن نبضك عادى جدا ..
- طبيبة ..؟ -كنت أود إن أكون طبيبة ، وكان والدى وقتها يعمل فى لندن .. ولكن جرفتنى حرفة اللغة ، فدرست اللغات الشرقية وتخصصت .. فقلت لها : هذا أحسن والخير فيما جرى .. وحدثتها عن سفرى إلى بكين ومحاضراتى فى قسم اللغات الشرقية بجامعة بكين عن الحريرى والهمزانى كأعظم قاصين فى تراثنا العربى ..ولم يكن الإسمان غريبين عليها.. وذهبت إلى غرفتها وعادت تحمل نسخة قديمة نادرة الطبع من الف ليلة وليلة بالإنجليزية.

فقلبت فيها معجبا .. وحدثتها عن كل ما أعرفه عن الف ليلة وليلة .. ومن استفاد منها من كتاب الغرب .. استفاد منها بوكاشيو وكتب الديكاميرون .. ثم مارجريت نافار التى كتبت الهيتاميرون .. كما استفاد منها جيته .. ولامارتين فى اسفارهما .. كل هؤلاء استفادوا من كتابنا العرب .. ولكن لقصورنا وتخلفنا أغفلنا أمجادنا.

والعربى منذ القدم وحتى العصر الجاهلى قبل الإسلام ، كان يقص ويحكى أجمل القصص وأبدع الحكايات فى رحلاته من مكان إلى مكان .. فهو أول من قص بالسليقة روائع القصص.

كما أن بديع الزمان الهمزانى أول من كتب قصة فنية قصيرة متكاملة العناصر الفنية كما يقول أساتذة الأدب وهذا ما سأتحدث عنه فى محاضرتى فى بكين.

ولاحظت هى أن حديثى عن أمجادنا من الكتاب العرب أراحتنى فحدثتنى عن كل ما عرفته منهم فى دراستها ، وعن عمقهم الفكرى وعبقريتهم.

وقلت لها :

- لقد كنت السبب فى سهرك وتعبك .. وأنت فى رحلة للترويح عن النفس .. ولا أدرى كيف أشكرك .. وأنا مسافر بعد أيام ، وقد لا نتقابل ولا أجد مجالا ولا فسحة للشكر .. وحدثتها عن العراف .. فقالت :
- ما الذى دعاك للذهاب اليه .. إنهم حمقى وكاذبون ..
- ولكنه كان ذكيا .. وبارعا .. وحدثتها بحقيقة المسألة .. فقالت فى تعجب :
- هذا غريب .. وأين الحقيبة ..
- إنها معى .. وهاهى ذى .. فقلت لها مازحا :
- فكرت فى شىء يريحنى ..
- ما هو !..
- نتقاسم هذه الدولارات .. فتمايلت ورقص قلبها من كثرة الضحك ..
- إنها تخصك وحدك .. رزق ساقه الله اليك ..
- إنها لا تخصنى .. إنها تخص صاحبها .. إننى من نسل قوم كان الحاكم منهم يطفىء سراج الدولة إذا تحدث فى شئونه الخاصة ..
- من !..
- إنه عمر بن عبد العزيز ..
- ولكن الدنيا تغيرت .. وتغير معها الناس ..
- الأمانة لا تتغير مع الزمن لأنها شىء باق .. وشرف الإنسان هو أثمن شىء يحوزه فى كل العصور ..
- نعم ما دام الخير موجودا فالدنيا باقية .. وبالخير نقاوم كل عناصر الشر مهما كانت ضراوتها .. وسمعت نقرا على الباب .. فقالت بدماثة :
- جاءت الممرضة لتعطيك الحقنة .. وسأتركك لحظات .. وغادرت " كرستين " الغرفة والممرضة داخلة وكانت صينية فى الثلاثين من عمرها .. قصيرة ونحيفة سريعة الحركة .. وجهها الصبوح يبتسم فى وداعة..

وغرزت الحقنة سريعا .. وطوت علبتها ، فقلت لها وقد سرنى أنها تتقن عملها:

- انتظرى لحظة .. أرجوك .. فاستغربت ، وظلت واقفة .. وأخرجت لها ورقة بمائة دولار هونج كونجى من جيبى لها . ففتحت عينها فى ذهول .. وسألت :
- ما هذا ..؟
- دولارات هونج كونجى .. أعطيها لك منحة منى ..
- مقابل ماذا آخذها .. إننى لم أمنحك شيئا بالمقابل .. فكيف آخذها..؟ كانت جادة فى كلامها كالسياط .. الهبتنى تماما .. فقلت أخفف الوضع .. وأصرف عنها ما فكرت فيه .. - لقد أعطيتنى حقنة الشفاء .. فلانت ملامحها وهى تستدير لتواجهنى :
- الحقنة .. أخذت ثمنها من الفندق ..
- ونظرت اليها صامتا وهى خارجة من الغرفة ولم أعقب .. ودخلت " كرستين " وحدثتها بما جرى .. فضحكت .. وقالت بنغمة لها معناها :
- هكذا الفقير .. والناس لا تعرفه .. وقلت لها وأنا أشير إلى الحقيبة التى كانت السبب فى عذابى وتطور وجع القلب ..
- وما الذى سنفعله الآن بعد كل هذا ..؟
- سننشر عنها سطرين فى جريدة جنوب الصين وسيأتى صاحبها حتما بعد النشر ..
- وكيف أنتظر .. وأنا مسافر إلى بكين ..؟
- سترسل برقية إلى الجامعة .. وتؤجل المحاضرة إلى أيام أخرى .. وكان فى كلامها الصواب

.. وأمسكت بيدها لأشكرها .. وشعرت بالراحة .. وخف العذاب والدوران .. وإن كنت أعرف أن الأرض ستظل تدور بعنف بمن عليها ولا تحفل بمن يسقط من جوانبها..